منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2250) السنة التاسعة - السبت (17) أيلول 2011

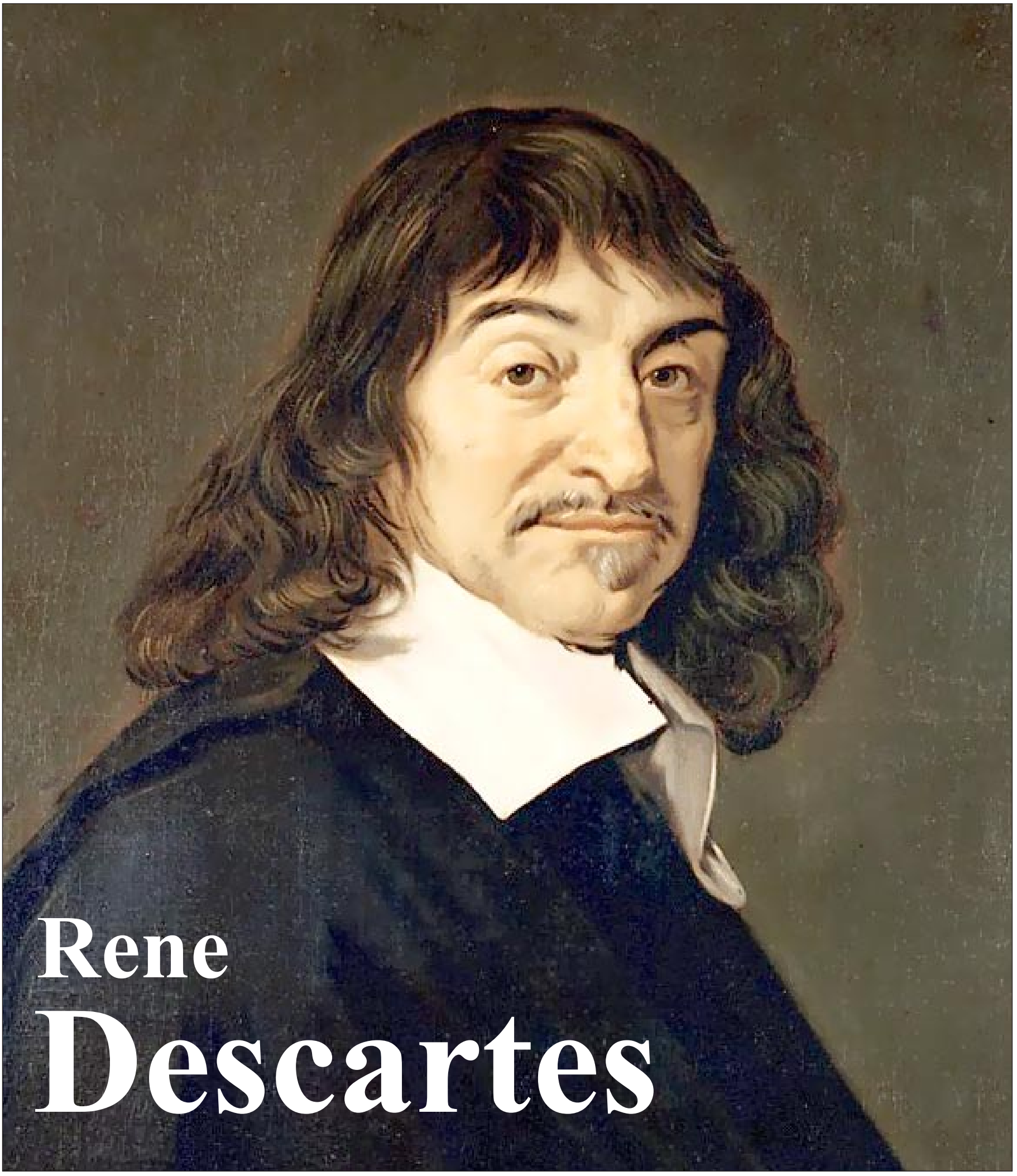

Rene Descartes

ديكارت

اعداد: زينة الربيعي

رينيه ديكارت René Descartes **ولد (٣١ مارس/آذار ١٥٩٦ - ١١ فبراير/شباط ١٦٥٠) يعرف أيضا بكارتيسيوس** Cartesius **فيلسوف فرنسي و رياضياتي و عالم يعد من مؤسسي الفلسفة الحديثة ومؤسس الرياضيات الحديثة. يعد من أهم و أغزر العلماء نتاجا في العصور الحديثة. الكثير من الأفكار والفلسفات الغربية اللاحقة هي نتاج و تفاعل مع كتاباته التي درّست و تدرّس من أيامه إلى أيامنا. لذلك يعد ديكارت احد المفكرين الأساسيين و احد مفاتيح فهمنا للثورة العلمية والحضارة الحديثة في وقتنا هذا. يمجد اسمه بذكره في ما يدعى هندسة ديكارتية التي يتم بها دراسة الأشكال الهندسية ضمن نظام إحداثيات ديكارتي ضمن نطاق الهندسة المستوية التي تدمجها مع الجبر.**

يعارض ديكارت الكثير من أفكار أسلافه. ففي مقدمة عمله عاطفة الروح Passions of the Soul**، يذهب بعيدا للتأكيد أنه سيكتب في هذا الموضوع حتى لو لم يكن احد سبقه لطرح هذا الموضوع. بالرغم من هذا فإن العديد من الأفكار توجد بذورها في الأرسطية المتأخرة و الرواقية** Stoicism **في القرن السادس عشر او في فكر أوغسطين.**

يعارض ديكارت هذه المدرسة في نقطتين أساسيتين: أولا يرفض تقسيم الجسام الطبيعية إلى مادة و صورة (شكل) كما تفعل معظم الفلسفات اليونانية. ثانيا يرفض الغايات أو الأهداف Teleology **- سواء كانت غايات ذات طبيعة إنسانية أو إلهية لتفسير الظواهر الطبيعية. أما في الإلهيات فهو يدافع عن الحرية المطلقة لفعل الله أثناء الخلق. أسهم في الشك المنهجي استهدف في شكه الوصول الي اليقين وأسباب الشك لديه أنه يلزم أن نضع موضع الشك جميع الأشياء بقدر الأمكان ويبرر الشك أنه تلقى كثيرا من الآراء الباطلة وحسبها صحيحة فكل ما بناه منذ ذلك الحين من مبادئ على هذا القدر من قلة الوثوق لا يكون إلا مشكوكا فيها إذن يلزم أن نقيم شيئا متينا في العلوم أن نبدأ بكل شيء من جديد وأن نوجه النظر إلى الأسس التي يقوم علينا البناء مثال المعطيات الخاصة للحواس فالحواس تخدعنا أحيانا والأفضل الا نثق بها أما الأشياء العامة كالعيون والرؤوس والأيدي التي يمكن أن تتألف منها الخيالات يمكن ان تكون نفسها خيالية محضة.**

تلقى ديكارت تعليمه على أيدي الجزويت. وكان هذا التعليم نقطة البداية وحجر الشحذ عند كل الهراطقة الفرنسيين، ابتداء من ديكارت ثم فولتير، وريتان وأناتول فرانس "بين جدران المعبد صنعت المعاول التي تحطم بها المعبد".

حياته المبكرة

ولد في لاهاي، وهي بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا. وماتت أمه بالسل بعد ولادته بأيام قلائل، وورث عنها المرض. وكان في صباه شاحب اللون، يسعل سعالاً يثير الإشفاق، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأي أمل في إنقاذه، ولم تتخلَ عنه المرضعة يأساً من بقائه على قيد الحياة، ولكنها أمدته بالدفء والغذاء من جسدها هي، فعاد إلى الحياة ثانية. وربما سمي لهذا السبب، باسم رينيه (وهي لفظة مشتقة من أصل لاتيني بمعنى ولد من جديد). وكان والده محامياً موسراً، وعضواً في برلمان رن Rennes، وترك لابنه عند وفاته دخلا يقدر بستة آلاف فرنك في العام.

وألحق في سن الثامنة بكلية لافيش اليسوعية، التي يقول عنها أحد المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين "يبدو أنها زودته بقدر من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه في معظم الجامعات في ذلك العصر(٧٩)" وتبين معلموه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء في الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ، ولحظوا أنه استغل الوقت في التهام الكتب، الواحد بعد الآخر، وفي كل جولاته في الميتافيريقا، ظل يحتفظ بإعجابه الشديد بأستاذته الجزويت، كما أنهم بدورهم، نظروا إلى شكوكه بشيء من التسامح الأبوي.

وقصد في سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبث، ولكنه لم يجد شيئا ينغمس فيه، لأنه لم يكن يحفل بالنساء أو يميل إليهن، ولكنه بوصفه رياضياً ضليعاً، انصرف إلى الميسر، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة نادي القمار. والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات علمية في القانون المدني والقانون الكنسي. وما أن استرد عافيته وقوته، حتى أذهل أصدقاءه، بانخراطه في جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨). ولما نشبت حرب الثلاثين عاماً انضم إلى قوات مكسيمليان أمير بافاريا، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك في معركة "الجبل الأبيض".

وفي غضون هذه الحملات. وبخاصة في شهور الشتاء الطويلة التي تعوق مواصلة القتل، كان ديكارت يتابع دراسته، وفي الرياضيات بصفة خاصة. وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) في نيوبرج بالقرب من أولم في بافاريا، اتقى البرد بالقبوع في "موقد" (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصاً له) وفيها-كما يقول هو-رأى فيما يرى النائم في ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام، ومضات من النور، وسمع رعداً، وبدا له أن روحاً سماوية كانت توحي إليه بفلسفة جديدة. وبعد خروجه من "الموقد" (الغرفة) كان-كما يؤكد لنا-قد صاغ الهندسة التحليلية، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة.

ورجع إلى فرنسا في ١٦٢٢، ورتب أموره المالية. ثم استأنف جولاته، فقضى قرابة سنة في إيطاليا: فقصد من البندقية (ويقولون سيراً على الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم إجلاله للعذراء. ورأى روما في فترة الغفران (١٦٢٥)، ومر بفلورنسا ولكنه لم يزر جاليليو. ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك في الريف تابع دراسته العلمية. وصحب الرياضي المهندس العسكري جيرار ديسارج في حصار لاروشيل (١٦٢٨). وفي أخريات هذا العام قصد إلى هولندا، حيث قضى في المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريباً، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شؤونه المالية.

ولسنا نعرف لماذا ترك فرنسا، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه "بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك في أشياء كثيرة "وخشي أن يتهم بالهرطقة، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك، مثل مرسن وبيرول. وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء، أملاً في أن يجد في بلد غريب عزلة اجتماعية (لا فكرية) يستطيع بها أن يشكل الفلسفة التي كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها، ولكن لم تقلقه الحركة النشيطة التي تلطفها القنوات-في أمستردام، وهو يقول "هناك، وسط الجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط، استطعت أن أعيش وحيداً منعزلا، وكأني في صحراء نائية(٨٢)". وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار ويخفي اهتماماته هي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعاً وعشرين مرة في السنوات العشرين التالية، من فرانكر إلى أمستردام إلى دنفتر، إلى أمستردام إلى أوترخت، ثم إلى ليدن، ولكن بالقرب من جامعة أو مكتبة عادة. ومكنه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد من الخدم. وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليلة (١٦٣٤) أنجبت له طفلة. وإنا لنسر إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفلة بعد موتها في الخامسة من عمرها. وقد نحا في الصواب إذا ظننا فاتراً لا تحركه الأحداث الدنيوية، ولسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي يشجبها رجال الأخلاق عادة. وما كان هو نفسه ليتجرد منها، فهو عرضة للزهو والغضب والغرور(٨٣). لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه. أنظر إلى ما ألزم نفسه بدراسته الرياضيات، الفيزياء، الفلك، التشريح، الفسيولوجيا، علم النفس، الميتافيزيقا، نظرية المعرفة، الأخلاق، اللاهوت. فمن ذا الذي يجرؤ اليوم على أن يجول بين هذا كله؟. ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية. وقدر فرص تجنبه محكمة التفتيش أو تهدئتها، وحاول أن يهيئ لفلسفته منهجاً رياضياً. ولحياته منهجاً فلسفياً.

فلسفته

ومن أين يبدأ؟ في "مقال في المنهج"، وهو الكتاب الفذ الذي يعد فاتحة عصر جديد، أعلن عن أول مبدأ، كان يمكن في حد ذاته، أن يقيم عليه الدنيا ويقعدها ويثير عليه غضب أولي الأمر، وهكذا كان. فقد كان الموضوع مكتوباً في لغة فرنسية متميزة ميسرة، في صيغة المتكلم الحية الساحرة. لقد أحدث ثورة كبيرة في التفكير، وقال ديكارت أنه كان سعيداً ينبذ كل النظريات والمبادئ والتعاليم، ويطرح كل جهد ومرجع، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو. وسيبدأ بصفحة جديدة خالية من أي شيء، ويشك في كل شيء. "إن السبب الأساسي في أخطائنا يمكن في أهواء طفولتنا... فالمبادئ التي اعتنقها في شبابي، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها".

ولكنه يمضي قدماً، إذا ساوره الشك في كل شيء؟. ولما كان مولعاً بالرياضيات، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحويلها، فقد تاقت نفسه، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس. "إن أرشميدس،

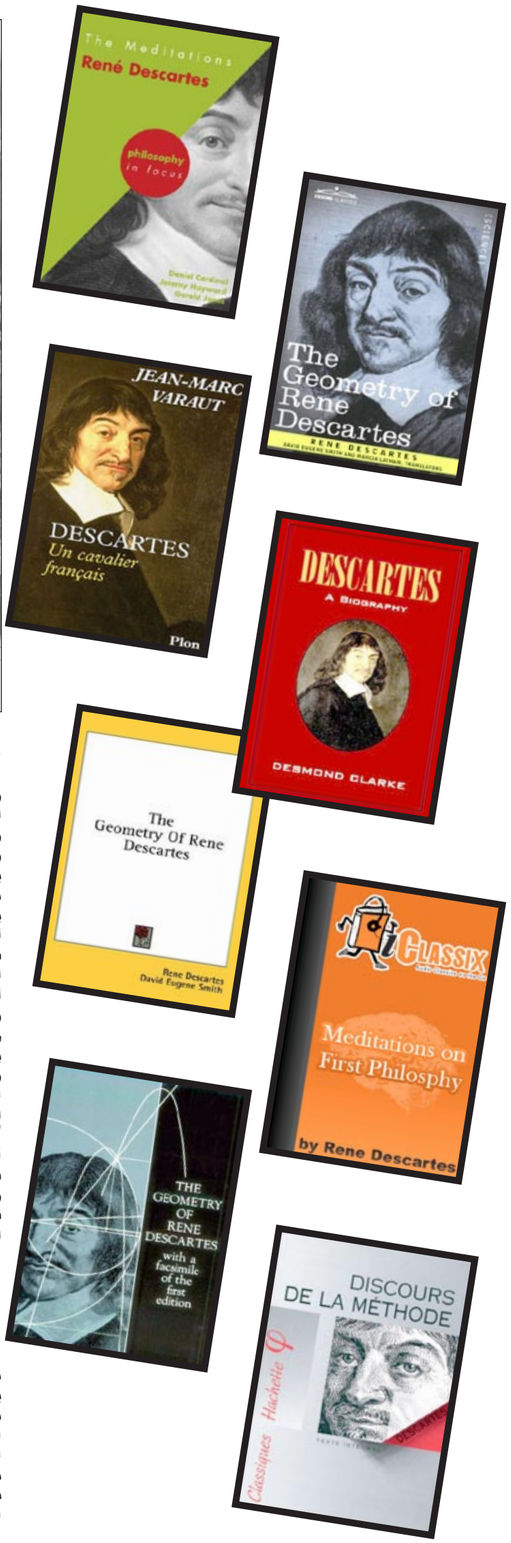

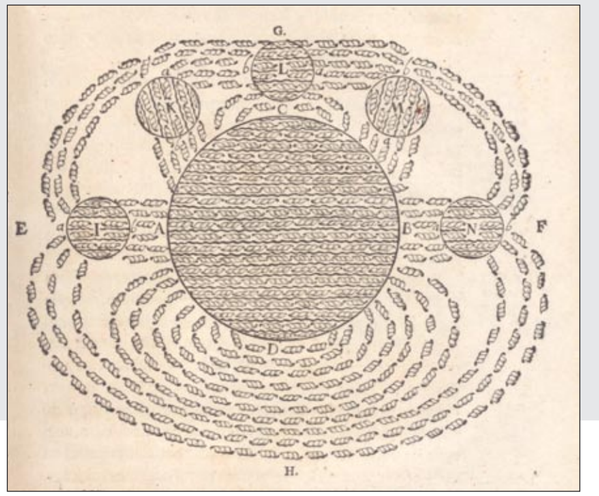

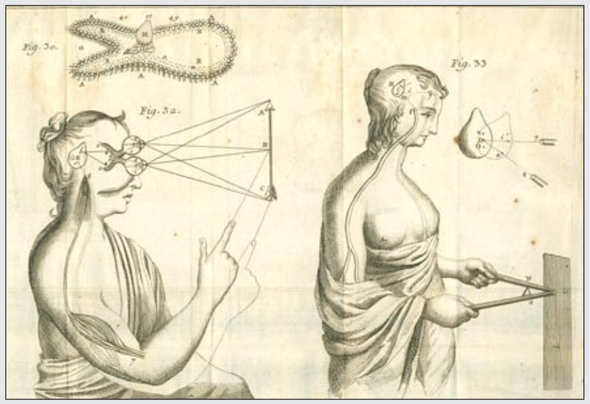

لكي يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكنا آخر، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك، وأنا بالمثل، سيكون لي الحق في أن استبشر خيراً كثيراً إذا أسعدني الحظ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لا نزاع فيه. (وأكد على هذه النقطة متهلاً: "أنا أفكر، فإذن أنا موجود". وهي أشهر عبارة في الفلسفة ولم يقصد بها أن تكون قياساً منطقياً، بل خبرة مباشرة لا سبيل لإنكارها، وهي أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها، وتكون سائر الأفكار "صحيحة" على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية-الإدراك الحسي المباشر، من حيث الجلاء والوضوح، وكان "منهج" ديكارت الجديد في الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من. أو تعتمد على، الشعور الأول لكائن يفكر. أننا على العكس، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الإدراك الحسي الأول كل المبادئ الأساسية في الفلسفة.

كانت ثورة في الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية، لا الأشياء الخارجية المفروض أنها معروفة بل الذات الواعية. لقد اكتشفت فلسفة النهضة "الفرد"، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل في فلسفته. "إنني لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر على أن اعرفه، من عقلي أنا(٨٩)" وإذا بدأنا بالمادة، وسرنا قدماً عبر مستويات الحياة العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي. ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده. والعقل فقط هو الذي يمكن معرفته أو إدراكه مباشرة (من دون سلطة) وهنا تبدأ المثالية، لا بمعناها الأخلاقي، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقة المباشرة للأفكار، أكثر مما تبدأ بالأشياء التي تعرف عن طريق الأفكار "وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعة المعرفة الإنسانية ومداها". ولدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان "العالم الخارجي" موجوداً إلا كمجرد فكرة.

وكما كان من الممكن أن نعبر من الجسم إلى العقل، بنظرية تقدر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنها ماديتان، وطبيعة الأفكار التي يبدو أنها طبيعة غير مادية، فإن ديكارت كذلك، وقد بدأ بالنفس، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء. فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التي يبدو أنها تدلل على عالم خارجي، ليست شيئاً أكثر من حالاته هو (أي العقل)؟ وكيف يصدق الحواس التي غالباً ما تخدعنا وتضللنا، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون (زائفة) في النوم، قد إشراقها عندما تكون "حقيقية" في اليقظة؟.

وهربا من سجن النفس "الأنانة" يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقطع أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة. ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان؟ إن ديكارت لا يستطيع إثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي، بل لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي. ولذلك أخرج ديكارت "الله" من "النفس المدركة"، تماما مثل فعل أنسلم في "البرهان الوجودي" قبل ذلك بستة قرون. وهو يقول: إن لدي تصوراً لكائن كامل مثالي قدير عليم، ضروري، خالد ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد، وعلى ذلك فإن الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته. ومن الذي كان يستطيع أن يبث في هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى؟ "ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله، إذا لم يكن الله موجوداً حقاً".

وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملاً ومن ثم فإنه لا يضللنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي. "لست أدري كيف يمكن الدفاع "عنه سبحانه" أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية. ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة"، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة، بين الذرات والموضوع ويصبح ديكارت، بعون من الله، واقعياً. والعلم نفسه-إيماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام مطبع للقانون، يمكن التعرف عليه وإحصاء ما فيه-يصبح أمراً ممكناً، لا لشيء إلا لأن الله موجود، وحاشا الله أن يكذب.

وإنا إذ نتتبع ديكارت لنشهد [عصر العقل] في طفولته يتراجع فزعاً من مغامرات الفكر، محاولاً الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة. ورغبة في بث الطمأنينة من جديد أطلق على "التأملات": تأملات رينيه ديكارت في فلسفة أولى، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس.وأهدى الكتاب إلى الحكيم الألمعي عميد كلية اللاهوت المقدسة في باريس "أي السوربون. وتقبل العميد الهدية، ولكن في ١٦٦٢ أدرج الكتاب في قائمة الكتب المحظورة، "حتى يتم تصحيحه". وبدأ الكتاب على نسق الجريء الذي بدأت به "المقالات" "اليوم... وقد هيأتُ لنفسي انقطاعاً أعيداً لرياضة روحية هادفة، فلسوف أنكب أخيراً، انكباباً منطلقاً جاداً، على استعراض عام لكل آرائي السابقة". لقد ألقى بها جميعاً من النافذة، ثم أجاز لها الدخول من الباب. ولم يكن من بين هذه الآراء، إيمانه بإله عادل قدير فحسب، بل كذلك إيمانه بإرادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان. ومهما سلمنا بمنطق العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة في عالم المادة والجسد، فإن حرية إرادتنا فكرة من إحدى الفكرات الفطرية المتأصلة، الواضحة الجلية، الحية المباشرة، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أي الفكرات) في النظريات المجردة.

إن فكرة الله، وفكرة النفس، وفكرة المكان والزمان، وفكرة الحركة، والبديهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة، بمعنى أن النفس لا تستمدها من الإحساس والخبرة، بل من جوهرها وعقلانيتها. (وهنا قد يعترض لوك، ويوافق كانت). ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعية حتى تخرجها الخبرة في صورة واعية، والنفس حينئذ لا تكون نتاجا للخبرة، بل شريكها النشيط المبدع في إنتاج الفكر. إن هذه النفس العقلانية "القدرة على التعقل" واضح أنها غير مادية، وليس لأفكارها طول ولا عرض، ولا موقع ولا وزن، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة. "إني أنا، أي النفس التي أنا بها كما أنا عليه الآن، هي أساساً متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها مما نعرفه". وعلى ذلك فإن هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد، ولا بد أنها تبقى.

ترى هل كانت تلك النتائج القويمة التي انتهى إليها ديكارت صادقة مخلصة، أو أنه أضفى عليها لوناً وقائياً؟. هل كان ديكارت تواقاً إلى متابعة دراسته العلمية في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفخ الميتافيزيقا مثل غشاوة مربكة تحول دون انقضاض الطيور الجارحة عليه؟ لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد. وقد يتسنى لامرئ أن يكون عالما فاضلاً على الأقل في الفيزياء، والكيمياء، والفلك، إن لم يكن في البيولوجيا-وفي نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية في المسيحية. وفي إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة "وتتم رسائله مع إليزابث أميرة البلاتين، في أسلوب فصيح عن التقى والتمسك بالصراط المستقيم. وزاره سلاميوس في لبدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه "كاثوليكي غيور جداً".

على أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته للعلم. وحول داره إلى معمل، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة، أشار ديكارت إلى ربع عجل بأن يقوم بتشريحه. وكان في بعض الأحيان يتحدث، كما تحدث بيكون، عن الفوائد العملية-الهائلة التي يجنيها الجنس البشري حين يستطيع العلم أن يجعل الناس "سادة الطبيعة والمسيطرين عليها" وكثيراً ما أدى توكيده الذاتي على الاستنباط وثقته فيه، إلى نتائج غامضة. ولكنه-اشتغل شغلاً خلاقا بعدة علوم. وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التي سادت علم الفيزياء، في العصور الوسطى: إيضاحات كمية مصوغة في صيغ رياضية، ولقد شهدنا تطويره للهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائي. وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية. وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المعلومة، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المجهولة.ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلاً عن سنل Snen وحالفه التوفيق في دراسة القوى العظمى التي تحدثها وسائل صغيرة، مثل البكرة والأسفين والرافعة والملزمة والعجلة، وصاغ قوانين القصور الذاتي والتصادم وكمية التحرك، وربما أوحى إلى باسكال بأن الضغط الجوي ينخفض بالارتفاع، ولو أنه أخطأ في إعلان أنه لا يوجد ثمة-إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها، فإنها قد تستبعد الإنسان وتدمره.

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكياً، فيما عدا الله والنفس العقلانية، وعرض ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش مائلتان أمام عينيه-على أنها مجرد فرض: فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة، فيمكننا أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك، وفق قوانين الميكانيكا، من دون تدخل، إن الحركة الطبيعية للجسيمات المادية في كون ليس فيه فراغ، تأخذ شكلاً دائرياً يؤدي إلى دوامات مختلفة من الحركة. ويمكن أن تكون الشمس والكواكب والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات في مركز هذه الدوامات، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة-وهذا يفسر التماسك والتجاذب-فإن كل كوكب كذلك محصور في دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه في مداره، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس في دوائر. وكانت نظرية بارعة، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل. ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان في مقدورنا أن نحول-لا الفلك والفيزياء والكيمياء، فحسب-بل كل عمليات الحياة، باستثناء العقل ذاته، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم، بل حتى الشعور، كلها ميكانيكية، أنظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً في اكتشاف هارفي للدورة الدموية. وطبق ديكارت، في ثقة تامة، فكرة الميكانيكية، على كل عمليات الحيوانات، لأنه أبى أن يخلع عليها القدرة على التفكير العقلي. وربما أحس بأنه مضطر، من الوجه الديني. إلى ظلم الحيوان على هذه الصورة، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلاني، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك، لكانت هي الأخرى باقية أو غير فانية، وربما كان في هذا إزعاج، إن لم يكن لهواة الكلاب، فهو على الأقل لرجال اللاموت.

ولكن إذا كان جسم الإنسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادي أن يعمل فيه. أو يحكمه بقوة غير ميكانيكية مثل الإرادة الحرة؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود. وربما ارتأى أن العقل يعمل في الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعة بشكل مناسب في قاع المخ. وكان أثر تصرفات ديكارت تهورا وطيشاً طوال حياته، أنه طلب من مرسن أن يبعث مقدماً بنسخ من كتاب "التأملات" إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لإرسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه، ورداً على ذلك دحض جاسندي آراء ديكارت في كياسة فرنسية. فإن الكاهن لم يقتنع بحجة-ديكارت الوجودية عن وجود الله. أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ. ويقول أوبري بأن هوبز بصفة خاصة "كان يميل إلى القول بأنه ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة في العالم، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة. واتفق هيجينز مع هوبز، وذهبا إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا.

والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف في أول منهج حديث جريء للفلسفة. أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية، ساقت ديكارت إلى طريقة استنباطية، اعتمد فيها في طيش زائد، برغم تجاربه، على نزعته إلى الاستنباط. وأنه لعمل انتحاري أن نجعل من الوضوح آية فكرة وجلائها وبهائها وبداهتها اختباراً لصحتها، فمن ذا الذي يجسر على هذا الأساس، على إنكار دوران الشمس حول الأرض؟ والمحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كل كائن لا نهائي بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح؟)، ثم المحاجة بأن الأفكار المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا، إن هي إلا ضرب من التفكير دائري مثل مدارات كواكب ديكارت. إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكلاستية العصور الوسطى، التي نصحت بنبذها. إن شك مونتيني كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذي لم يفعل إلا أن زحزح الهراء التقليدي ليفسح مكاناً لهرائه هو.

ومع هذا كله، بقي في علم ديكارت، أن لم يكن في" ميتافيزيقاه" ما يشيع في نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب. فإن نظريته في "ميكانيكية الكون" تركت المعجزات والإرادة الحرة في موقف خطر ومأزق حرج، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم.

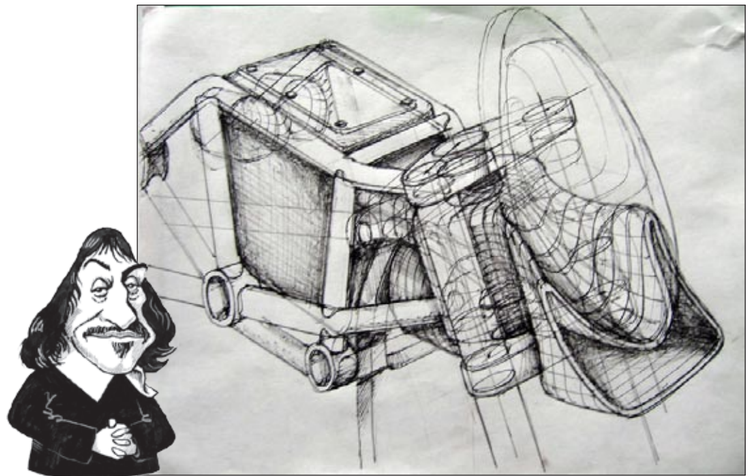

ومرة أخرى أنه لما سمع أنه جاليليو (يونيه ١٦٣٣) طرح جانباً مؤلفه الضخم "العالم" الذي كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التي توصل إليها، وكتب، وقلبه يقطر أسى وحزناً، إلى مرسن: لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر في نفسي، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتي، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار... وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة، فإن كل مبادئ فلسفتي عن "ميكانيكية العالم" خاطئة... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضاً... ولكني على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة." وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطة "العالم".

ولم يأت الهجوم (في حياته) من الكنيسة الكاثوليكية، بل من رجال اللاهوت الكلفنيين في جامعتي أوترخت وليدن. فقد عدوا دفاعه عن الإرادة الحرة مرحلة خطيرة تسيء إلى "القضاء والقدر" كما رأوا في "ميكانيكية الكون" فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير لمجرد قوة دافعة يبدأ بها الله "فما هي إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلالية أو الأولى هذه. وفي ١٦٤١، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت، أغرى رئيس الجامعة، جيسبرت فوشيوس، ولاة الأمور في المدينة بإدانته الفلسفة الجديدة وتحريكها. فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوماً على فوشيوس، الذي رد عليه رداً عنيفاً، وعواد ديكارت الكرة، وقارعه الحجة بالحجة. وفي ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للمثول أمامهم. ولكنه رفض، وصد الحكم عليه، فتدخل أصدقاؤه في لاهاي، ففتح أولو الأمر في المدينة بإصدار قرار يحظر أية مناقشة علنية تأييداً أو تفنيداً لآراء ديكارت. ووجد بعض السلوى في صداقته مع الأميرة إليزابث التي كانت تقيم في لاهاي مع والدتها إليزابث ناخبة البلاتين ملكة بوهيميا المخلوعة. وكانت الأميرة في التاسعة عشرة حين ظهر كتاب "المقالات" ١٦٣٧، فقرأته في دهشة ممزوجة بالابتهاج والسرور بما رأت أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها، والتقى بها ديكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تتسم

◄

تأملات في تأملات ديكارت

"التجريبيون كالنمل: إنهم يجمعون ويضعون كلّ شيء موضع الإستفادة؛ لكن العقلانيين كالعنكبوت: ينسجون الخيوط من أنفسهم"!

فرانسيس بيكون

عبدالسلام الملا ياسين

جمجمة ديكارت في متحفه

لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة في تقواه، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزياءه، ولكن دنيا الأناقة في باريس، أقبلت في سرور بالغ على مؤلفاته التي كتبها في لغة فرنسية مشرقة جذابة. وسخر مولير من "السيدات العالمات" اللاتي تبادلن آنباء الدوامات في الصالونات"، "ولكنهن لم يطقن الفراغ" وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب، وكانوا قد اسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت، ولكنهم بعد ١٦٤٠، لم يعودوا يظلونه بحمايتهم. وكان لهم يف ١٦٦٣ ضلع في أدراج مؤلفاته في قائمة الكتب المحظورة. ورحب بوسويه وفنلون ببراهين ديكارت على المبادئ الأساسية في المسيحية، ولكنهم رأوا في تأسيسها على العقل خطراً على العقيدة، واستنكر باسكال الاعتماد على العقل، على اعتبار أن هذا العقل ريشة في مهب الريح.

ولكن اعتماد ديكارت على العقل، هو الذي، على وجه الدقة، أيقظ ذهن أوروبا، وأوجز فونتيل الأمر بقوله "أن ديكارت... هو الذي أمدنا بطريقة جديدة للتفكير، تدعو إلى الإعجاب أكثر مما تدعو فلسفته ذاتها، تلك التي يعتريها قدر كبير من الزيف والشك، وفقاً للقواعد التي علمنا إياها هو نفسه "إن شك ديكارت أدى لفرنسا-أو للقارة بصفة عامة-ما أداه بيكون لإنجلترا:- أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر في جرأة وشجاعة في بحر مكشوف، حتى ولو أنها ما لبثت أن عادت، عند ديكارت نفسه إلى شاطئ الأمان المألوف. ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة في أزهى عصور فرنسا، وهو "القرن العظيم" أي عصر لويس الرابع عشر، أنها كانت حقبة بورت رويال وباسكال وبوسويه، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت. أما تلك الحقبة نفسها في هولندا فهي عصر سبينوزا وبيلي، وفي إنكلترا عصر هوبز ولوك. أن الزرع كان يخرج شطأه. وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن في فرنسا. إن أسلوبه كان ابتداعاً منعشاً. وهنا كانت الفلسفة بلغة قومية في متناول الجميع بشكل خطير، وقلما يتحدث فيلسوفاً بمثل هذه الألفة الساحرة وهو يعد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التي يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها. ولم يكن كتاب "مقال في المنهج" مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسي. بل إنه كذلك ضرب، للعصر الزاهر في فرنسا، مثلاً في لغته وأفكاره، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال في الأدب والفنون والسلوك والحديث. وتلاءم توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع الذهن الفرنسي، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسي بوالو:

"أحب العقل إذن، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده".

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التي تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسي بعض الشيء من ديكارت، فإن مزاجه وآلياته (ميكانيكي) لم يتركا للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق. إن فوضى رابليه المهتاجة واستطرد مونتيني الذي لا ضابط له، بل حتى الاضطرابات العنيفة في الحروب الدينية، أن هذه كلها أفسحت المجال، بعد ديكارت، لمناقشات كورني العقلانية، ولوحدات راسين العارمة، ولتقوى بوسويه المنطقية، ولقانون الملكية والبلاد ونظامها وشكلها وسلوكها في عهد لويس الرابع عشر. وأسهم ديكارت، عن غير قصد منه في ابتداع طراز جديد في الحياة الفرنسية، كما فعل في الفلسفة سواء في سواء. وربما كان أثره في الفلسفة أعظم من أثر أي مفكر آخر قبل كانت. لقد استقى مالبرانش منه، وتتلمذ سبينوزا على منطق ديكارت، واكتشف نقاط الضعف فيه عند شرحه. وقلد "المناقشات" في نبذة عن سيرة حياته بعنوان "تحسين التفاهم"، وتبنى المثل الأعلى الهندسي في كتابه "الأخلاق"، وبنى بحثه في "استرقاق الإنسان" على بحث ديكارت "رسالة في انفعالات النفس".

وبدأ تقاليد المثالية في الفلسفة الحديثة، من بركلي إلى فخت، بتوكيد ديكارت على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر، مثلما انحدرت تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبنسر. ولكن ديكارت قدم للمثالية ترياقاً -مفهوم كون موضوعي ميكانيكي تماماً- فإن محاولته لفهم العمليات العضوية وغير العضوية، سواء بسواء، على أساس ميكانيكي، هيأت للبيولوجيا وللفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية. وتحليله الميكانيكي للإحساس والخيال والذاكرة والإرادة، أصبح معيناً لا ينضب لعلم النفس الحديث. وبعد أن دعم القرن السابع عشر في فرنسا العقيدة الكويدية بديكارت، وجدت استثارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة في شكه المنهجي، وفي اعتماده على العقل، وفي تفسيره لكل حياة الحيوان على أسس الفيزياء والكيمياء نفسها. إن اعتداد الفرنسي-المغترب بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط، كان يبرره أثره المتزايد على الذهن الفرنسي.

إن "المناظر الكبرى" بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلاً واعياً. ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط. إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام التسعين ١٥٥٨-١٦٤٨، من إلزابث إلى ريشليو، ومن شكسبير إلى ديكارت، لأدركنا أن كل القضايا المستحوذة على الأذهان لا تزال محصورة في المسيحية، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على إنجيل قبله الجميع على أنه "كلمة الله" وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن أن توضع موضع الاختبار، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق للطبيعة.

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مسيطرة في اسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة. أما في إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية، وأضفت بالفن على الحياة شيئاً من الجمال، وزينت الأخلاقيات بالأمل، وارتضت فرنسا حلاً وسطاً، وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب، كاثوليك أو هيجونوت، على حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح في الشك، مرجئة التقى والورع إلى دنوا الأجل المحتوم. وقامت في الأراضي الوطيئة تسوية جغرافية، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكثلكة، وانتصرت الكلفنية في الشمال. وأنقذ البروتستانتية في ألمانيا كاردينال فرنسي، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمي في إسكندناوة، ولكن ملكة السويد أثرت طقوس روما، واقترحت إليزابث في إنكلترا اتحاداً كريماً بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية، ولكن البروتستانتية الإنكليزية التي تفرقت شيعاً أبرزت حيويتها وغامرت بحياتها.

وفي غمرة تناحر الجيوش والمذاهب، كانت "دولية العلوم" تكافح للإقلال من الخرافة والخوف. كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشري، وتصلح التقويم، وتبتدع الهندسة التحليلية، وكانت تحلم، لفورها، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية. وكان تيكوبراهي قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التي مكنت لكبرل من صياغة قوانين حركة الكواكب، التي أنارت الطريق أمام نيوتن ليبصر بقانون كوني عام واحد. وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع، بمناظيره المقربة التي كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار، وفي قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ في قالب مسرحي. وفي مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الإعدام حرقاً حتى الموت، في محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس، كما أن فرانسيس بيكون الذي يدعو ذوي العقول المفكرة إلى العلم، كان يخطط مهام العلوم ومسئوليتها لعدة قرون مقبلة، أما ديكارت، بشكه العام الشامل، فقد ألقى على عصر العقل عبئاً جديداً. وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعاً لتقلبات العقيدة. وتأثر الأدب بالصراع، وكان لآراء الفلاسفة صداها في شعر مارلو وشكسبير ودون. وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذي أهاج ذهن أوربا وحوله، بل ربما ذهن العالم بأسره.

يدعي العقلانيون أن رونيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) إنتقل بالفلسفة من كلاسيكيّتها إلى حداثتها الأولى، من حيث يبدأ "الفيلسوف" عنده من لاشيء، متحررًا من الفرضيات والآراء المسبقة التي إكتسبها من أبويه وأساتذته. ونحن إن سلمنا لهم في مساهمات ديكارت في نقل الفلسفة الكلاسيكية الى أعتاب الحداثة بصيغتها البدئية، فإننا لا نسلم لهم بأن لذلك أي إرتباط حقيقي مع توهم ديكارت لمسألة التحرر من الفرضيات والآراء المسبقة، ونضع من أجل قولنا هذا امامهم مقولة قديمة أضحت من البديهيات المسلم بها في علم النفس هذا اليوم، وأعني مقولة ارسطو:

"لا يوجد شيء في العقل ما لم يكن في الحواس من قبل".

إذ ان ما يدعي ديكارت إكتشافه في نهاية تأملاته الستة، في كتابه المعتبر (تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى)، وتحديداً وجود الله كفكرة جوهرية مستقلة عن العقل الإنساني من جهة، وأن النفس البشرية التي لا يفرقها ديكارت عن الروح هي شيء متمايز عن الجسم، ولا تموت بالضرورة بموت الجسم.. إن مايدعي ديكارت إكتشافه لا يخرج في رأينا وبأي حال من الاحوال عن منظومة المدركات المخزونة صورها في ذهن ديكارت.. وليس من سبب وجيه يستدعينا إستثناء الله أو النفس البشرية من التعميم السابق الذكر.

معلوم أن مبدأ "الشك الديكارتي" يقوم على ثلاثة: الشك في الحواس، والشك في أية أحكام إزاء العالم الخارجي، والشك في الوجود. أما (الفرد الديكارتي) فيعرف أنه موجود، وأنه كائن مفكر، كامل، مدرك لذواتصه؛ وهي فكرة وضعها (الله) في نفسه. وكشأن أفلاطون، يُلحّ ديكارت على فصل العقل عن الحواس، وصولاً إلى المعرفة العقلية الخالصة، التي مفتاحها "نور الطبيعة"، وهي قدرة فطرية غرسها الله في عقولنا للوصول إلى الحقيقة كما يتصور ديكارت.

ولكن الأمر الجوهري الذي فات ويفوت الديكارتيين هو تغاضيهم عن العلاقة الرابطة بين ماهية الله ومدى تطور المعرفة لدى الإنسان، فماهية الله مرتبطة بمعرفة الانسان إرتباطاً مصيرياً، لأن هذه الماهية تأسست ابتداءً على المستحيلات التي واجهت هذا الانسان، هذه المستحيلات كانت ولازالت ناشئة عن القصور المعرفي عند الإنسان، وليس ادل على ذلك من ان هذه الماهية (أي ماهية الله) كانت تتطور وتتغير على مدى التاريخ الإنساني، وهي تحاكي في تطورها تطور المعرفة عند الإنسان. وقائمة المستحيلات (قصور المعرفة لدى الإنسان) تطول كلما عدنا القهقري الى الماضي، حتى نصل في فجر التاريخ الى ماهية بسيطة في جوهر مطلق خارج إدراك الانسان، كما أسست له الديانات التوحيدية الثلاث. أما تاريخ الإنسان يقوم بوظائف كثيرة جداً وبسيطة جداً، وتتطور هذه الوظائف من حيث النوع كلما أقتربنا من عصرنا الحالي، أي أنها تدخل في عملية خصخصة لحساب النوع وعلى حساب الكم، فوظيفة الله في حياة الإنسان كانت ولا زالت على علاقة عكسية مع تطور المعرفة لدى هذا الأنسان، ووظائف الله هي التي تحدد ماهيته... إذن من الذي يصنع الاخر، هل الله الذي يصنع معرفتنا أم معرفتنا هي التي تصنع الله؟

إن مشكلتنا اليوم ليست في حقيقة وجود الله من عدمه، بل هي الموقع الذي يتواجد فيه الله ضمن منظومتنا المعرفية، فإستمرار وجود الله ضمن مساحة الواقع المبرهن ولو عقلانياً، له تأثيرات سلبية على مجمل حياتنا البشرية، ليس هذا فحسب بل هو ذو تأثير سلبي حتى على ماهية الله على إفتراض أنه موجود.

أعود لأقول أن وجود الله في الفكر الإنساني كان ولايزال يتأسس على المستحيلات التي واجهت وتواجه الانسان في حياته، أي أن ماهية الله لم تتعد ملء الفراغات الكبيرة في قدرة الإنسان نفسه، والتي راح يتلمسها هذا الإنسان في طريق بحثه عن الكمال.

وما الديانات السماوية أو المؤسسة على النصوص الموحى بها، إلا قهر لتساؤلات الإنسان في الجانب الاخر عن موضوعية الكمال الذي إفترضته المعرفة الانسانية في ماهية الله إبتداءً، فها هي النصوص المقدسة (التوراة والأناجيل والقرآن) نفسها مليئة بتساؤلات وشكوك عن صحة إدعاء الكمال في نظر الإنسان البدائي، بل وأكثر إرتباطاً بواقعه اليومي، فالله في مراحل متقدمة من تاريخ الإنسان يقوم بوظائف كثيرة جداً وبسيطة جداً، وتتطور هذه الوظائف من حيث النوع كلما أقتربنا من عصرنا الحالي، أي أنها تدخل في عملية خصخصة لحساب النوع وعلى حساب الكم، فوظيفة الله في حياة الإنسان كانت ولا زالت على علاقة عكسية مع تطور المعرفة لدى هذا الأنسان، ووظائف الله هي التي تحدد ماهيته... إذن من الذي يصنع الاخر، هل الله الذي يصنع معرفتنا أم معرفتنا هي التي تصنع الله؟

إن مشكلتنا اليوم ليست في حقيقة وجود الله من عدمه، بل هي الموقع الذي يتواجد فيه الله ضمن منظومتنا المعرفية، فإستمرار وجود الله ضمن مساحة الواقع المبرهن ولو عقلانياً، له تأثيرات سلبية على مجمل حياتنا البشرية، ليس هذا فحسب بل هو ذو تأثير سلبي حتى على ماهية الله على إفتراض أنه موجود.

أعود لأقول أن وجود الله في الفكر الإنساني كان ولايزال يتأسس على المستحيلات التي واجهت وتواجه الانسان في حياته، أي أن ماهية الله لم تتعد ملء الفراغات الكبيرة في قدرة الإنسان نفسه، والتي راح يتلمسها هذا الإنسان في طريق بحثه عن الكمال.

وما الديانات السماوية أو المؤسسة على النصوص الموحى بها، إلا قهر لتساؤلات الإنسان في الجانب الاخر عن موضوعية الكمال الذي إفترضته المعرفة الانسانية في ماهية الله إبتداءً، فها هي النصوص المقدسة (التوراة والأناجيل والقرآن) نفسها مليئة بتساؤلات وشكوك عن صحة إدعاء الكمال في العصور السابقة على ديكارت.

فإن لم يكن ديكارت مسيحياً مؤمناً، قد أستقر وجود الله كفكرة في منظومته المعرفية منذ طفولته، فهل كان بإستطاعته أن يبرهن على وجود الله في ستة مسائل، أو حتى ستمائة مسألة؟ حتى أن الله الذي تجسد في المسيح (كما تصوره لنا أناجيل العهد الجديد) قبل أن يخلق ديكارت بمئات السنين لم يقدم ماقدمه ديكارت من برهان ناصع على وجود الله، فالمسيح لم يقم بغير ملء النقص عيانا أمام الناس، هذا النقص الذي كان يعاني منه الإنسان في ذلك الزمن أو حتى في زمننا هذا، لكي يثبت أنه هو الله أو ابن الله المتجسد في جسم بشري، فإشفاء المرضى وتكثير الطعام وإحياء الموتى وغيرها، ما هي في الاساس إلا فراغات في قدرة الإنسان، فهل نستشف من ذلك أن معرفة الانسان في زمن المسيح لم تكن بالقدر اللازم للبرهان على وجود الله المؤمن به سلفاً كما فعل ذلك ديكارت بعد مئات السنين؟

يقول ديكارت في معرض رده على الاعتراضات الثانية:

"الله هو الجوهر الذي ندرك انه كامل الكمال الاسمى والذي لا نتصور فيه اي شيء يتضمن اي نقص او حد للكمال."

إذن الله وحسب ديكارت نفسه لا يمكن إدراكه إلا بهذه الماهية، اي "كامل الكمال الأسمى".. ويذهب ديكارت أبعد من ذلك حين ينفي إمكانية تصور ان الله يتضمن اي نقص او حد للكمال. ولكننا نتساءل عن الأسس التي أوجد عليها ديكارت هذا الكمال المتصور عن الله؟ إنه يقيناً أوجده (الكمال) بالمقارنة بما لا يستطيعه ديكارت، فهل هذا الكمال يمكن أن يتأسس اليوم على ما تأسس عليه في عصر ديكارت؟ أو هل أن هذا الكمال هو نفسه الذي كان يتصوره الإنسان عن الله قبل ديكارت بالف سنة أو الفين أو عشرة الاف سنة؟ وجود الله هو أن الكمال الذي تصوره ديكارت في ماهية الله ليس كمالاً مطلقاً، إلا بدرجة تطور المعرفة عند ديكارت، لذا فهو نسبي يختلف (أي الكمال المتصور عن الله) لدى إنسان هذا العصر ولو بدرجة اقل وضوحاً من تصور ذلك الكمال عند الإنسان في العصور السابقة على ديكارت.

ويؤكد ديكارت ما ذهبنا اليه في معرض رده على الاعتراضات الثانية ايضاً حين يقول:

"معنى الله يتضمن الوجود الضروري:، لا مجرد الوجود الممكن المتضمن في معاني جميع الاشياء الاخرى".

إذن وجود الله ضرورة أكثر منها إمكانية وجود. ولكن ما دواعي هذه الضرورة التي يجهلها ديكارت أو يتجاهلها؟

إنها قائمة المستحيلات أو العجز الطبيعي أو الناشئ عن قصور المعرفة، الذي يعانيه الإنسان في مسيرة حياته.. فالإنسان عاجز عن إيقاف الموت، وإيقاف الالم، والجوع، والكوارث.. وغيرها مما تشغل باله، ولو رجعنا قليلاً الى الماضي، فالإنسان غير قادر على الكثير مما أصبح اليوم ضمن قدراته، وهكذا فالقائمة تطول كلما كانت معارف الانسان محدودة وتقصر كلما توسعت تلك المعرفة، حتى ياتي يوم تتحدد فيه ماهية الله في اثنتين أو ثلاثة من المستحيلات التي قد تبقي ترافق الإنسان، أو حتى أننا سنضطر يوما ما الى إختراع وظائف جديدة لله على طريق صبغه بصبغة الكمال الاسمى كما يقول ديكارت.

لنتوقف هنا وننظر، السنا حقيقة نسيء الى الله بهذا الربط المجحف بين وجوده وبين عجزنا كبشر؟ أليس هذا هو السبب الذي جعل المسيحيين الاوائل يجسدون الله في شخصية المسيح، لأنه كان إنساناً غير عاجز حسب تصورهم! إننا من خلال ربط وجود الله بالكمال الذي نبحث عنه لأنفسنا كبشر، إنما نضع الاساس لنفي الله من حياتنا في المستقبل، وهنا مكمن الخطر.

هل توجد قطيعة بين فلسفة ديكارت وفلسفة النهضة؟ لازالت هذه المسألة محط خلاف بين الباحثين المختصين في دراسة التراث الديكارتي ومؤرخي الفلسفة إلى اليوم. يرى Henri Gouhier و Etienne Gilson أن ديكارت أحدث قطيعة مع فلسفة النهضة، وذهب Etienne Gilson إلى حد القول بأن ديكارت وضع حدا لمغامرات عصر النهضة، ووصفه Henri Gouhier بأنه يمثل نقيض النهضة "Anti-Renaissance"، واستدل على ذلك بما ورد في رسالة كتبها ديكارت إلى Beeckmann فند فيها بالفلسفة الطبيعية لبعض الفلاسفة من المجددين في عصر النهضة. ومهما كان تأويل هذه الرسالة فإنه من الممكن مد الجسور بين فلسفة ديكارت والفلسفة الإنسية التي كانت قد بدأت تتشكل في فرنسا خلال عصر النهضة على يد كل من Sibiuda و Bovelles و Charron من خلال مراجعة المشروع الفلسفي الديكارتي.

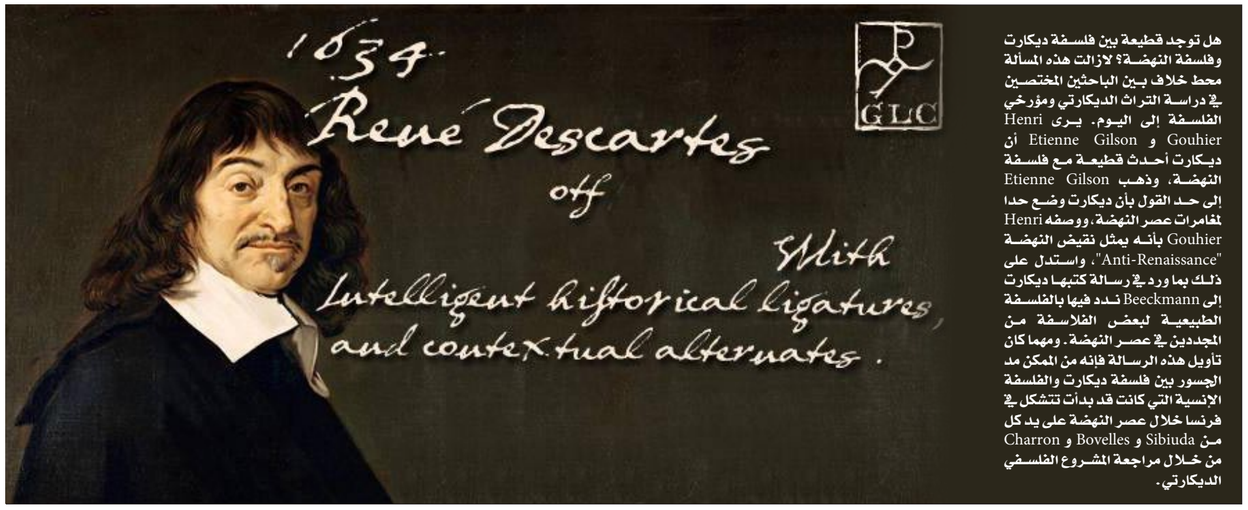

الميتافيزيقا الديكارتية

بين اللاهوت والنزعة الإنسية

أحمد أغبال

والحقيقة أن مشروع ديكارت الذي بلوره منذ مارس/آذار ١٦٣٦ والذي يهدف إلى تأسيس علم ذي صلاحية كونية قادر على الارتقاء بالطبيعة الإنسانية إلى أعلى درجات الكمال، هو امتداد لفلسفة النهضة التي كانت تسير في اتجاه الفصل بين الفلسفة واللاهوت والربط بين العلم والحكمة، والابتعاد عن اللاهوت السكولائي الذي جعل من الميتافيزيقا علما تأمليا لا تربطه أية صلة بالحكمة الإنسانية، وذلك على عكس ما نجده لدى أرسطو الذي استهل المقالة الأولى من الميتافيزيقا برسم صورة جميلة للحكيم. لقد جاء مشروع ديكارت كرد فعل ليس فقط ضد الفصل بين العلم والحكمة، بل جاء أيضا كرد فعل ضد الفصل بين الفلسفة الطبيعية والأخلاقية وبين الميتافيزيقا.

تعد مسألة العلاقة بين الفلسفة الأخلاقية والميتافيزيقا من المسائل الأساسية في الفلسفة الديكارتية. فقد كان مشروع ديكارت في الأصل مشروعا للتركيب بين مختلف أبعاد الإنسان المعرفية والأخلاقية والوجودية. ولكنه اصطدم بعراقيل وصعوبات لها علاقة بالمناخ الثقافي العام ووضعية العلوم في زمانه، ولذلك جاءت مقالته في المنهج مقسمة على ثلاثة محاور أساسية وهي: قواعد المنهج، قواعد الأخلاق والتأملات أو الميتافيزيقا.. يمكن النظر إلى هذه المحاور على أنها مترابطة فيما بينها باعتبارها تمثل مختلف مجالات العلم الكوني الذي كان يطمح إلى تأسيسه، ومع أن ديكارت لم يعبر بشكل صريح عن العلاقة التي تربط المجالات الثلاثة بعضها ببعض فإن هذه العلاقة موجودة بالفعل، وبإمكان الباحث أن يكشف عنها من خلال الوقوف على مقاصد الفيلسوف وتجربته في الحياة كما تتراءى من خلال كتاباته الفلسفية التي ليست غريبة عن فن السيرة الذهنية، ومن خلال الكشف عن المصادر الأساسية التي يقوم عليها نسق تأملاته الميتافيزيقية.

يبدو من خلال قراءة "التأملات" أن هناك علاقة عضوية بين الميتافيزيقا وفلسفة الأخلاق لدى ديكارت. وتمثل فكرة الكمال الإنساني في اعتقادنا المبدأ المنظم الذي يربط مختلف مجالات الفلسفة الديكارتية بعضها ببعض.. نجد هذه الفكرة في كتاباته الأساسية وخاصة في التأملات الميتافيزيقية. يقول في نهاية التأملات الرابعة: إن الله منحني الحرية لإصدار الحكم أو تعليقه عندما يتعلق الأمر بالأشياء التي لا توجد لدي عنها فكرة واضحة ومتميزة. وإذا كان من الممكن أن أخطأ، فإن السبب في ذلك يرجع إلى وجود نقص في يتعلق بسوء استعمال الإرادة والتسرع في إصدار الأحكام في القضايا التي لا زال يكتنفها الغموض في ذهني. وإذا كان الله لم يمنحني فضيلة العصمة التي يتوقف وجودها على المعرفة الواضحة المتميزة بكل الأمور التي يمكنني البت فيها،فإنه منحني على الأقل الوسيلة الأخرى المتمثلة في حرية الامتناع عن إصدار أي حكم على الأشياء التي لا أعرف حقيقتها معرفة يقينية. وهاهنا بالذات يكمن "الكمال الأساسي للإنسان" المتمثل في حرية الإرادة والاختيار.

وهكذا، فإن ما يعصم الإنسان من الوقوع في الزلل فهو حرية الإرادة والاختيار وحسن استعمالها. يشمل الكمال الإنساني بهذا المعنى القدرة على اكتساب المعرفة اليقينية وحسن استعمال الإرادة والحرية باعتباره أساس الأخلاق الفاضلة. ولذلك يمكن أن نجعل من فكرة الكمال الإنساني المبدأ الأساسي الأول الذي تقوم عليه كل من الفلسفة الميتافيزيقية والفلسفة الأخلاقية عند ديكارت. ومن هنا تتبين العلاقة بين الميتافيزيقا والأخلاق في الفلسفة الديكارتية، فهما مترابطان في الأصل، بمعنى أنهما بنيا على أساس واحد أو أن لهما جذرا واحدا، وهو الإيمان بقدرة الإنسان على الارتقاء في مراتب الكمال.

وترجع جذور فكرة الكمال الإنساني إلى ما قبل عصر النهضة، وتبلورت بشكل واضح في الساحة الثقافية الأوروبية من القرن الثالث عشر بعد أن تمت ترجمة شروح ابن رشد على طبيعيات أرسطو إلى اللغة اللاتينية. وارتبطت هذه الفكرة آنذاك بدراسة العلوم التأملية، حيث بدأ بعض المفكرين يميلون أكثر فأكثر إلى الاعتقاد بأن تحصيل هذه العلوم يساعد الإنسان على اكتساب مزيد من الكمال. ولكنها تعرضت لانتقادات رجال الدين الذين نددوا بها باعتبارها مناقضة لتعاليم الديانة المسيحية التي تقول بسقوط الإنسان إلى الدرك الأسفل وبالرحمة الإلهية، وذلك على اعتبار أن فكرة الكمال الإنساني تفترض إمكانية الخلاص خارج نطاق الدين. ورغم مقاومة رجال الدين لهذه الفكرة في العصر الوسيط المتأخر فإنها انتقلت إلى فلاسفة عصر النهضة، ولكنا تسببت لهم في الكثير من المتاعب. وإذا كان طوماس الإكويني قد أخذ بفكرة الكمال الإنساني، فإنه أكسبها مدلولا آخر ينسجم مع التعاليم الدينية: يكتسب الإنسان مزيدا من الكمال في نظره لا من خلال تحصيل العلوم التأملية ولكن من خلال تأمل الذات الإلهية، ولا ينال هذه النعمة إلا من كتبت لع السعادة في الحياة الأخرى. يدل ذلك على استحالة ارتقاء الإنسان المذنب إلى مراتب الكمال العليا في الحياة الدنيا. إن الإنسان في نظر رجال الدين عاجز عجزا راديكاليا عن معرفة أي شيء من الأمور المتعلقة بالذات الإلهية، وأصبحت له في اللاهوت المسيحي، على الأقل منذ Duns Scot، صورة المسافر الشقي البعيد كل البعد عن السعادة الأخروية، ولم يعد بوسعه وهو في رحلته الدنيوية إلا أن يطلب الرحمة الإلهية.

ولذلك حرّموا الأخذ بفكرة الكمال الإنساني. ولسوف يعاني ديكارت بدوره من هذا القرار الكنسي.

ولقد أدى قرار التحريم إلى تغييب الإنسان من حقل الممارسة الفكرية طوال فترة مديدة. ولكن بعض فلاسفة عصر النهضة ممن كانت لهم الشجاعة الكافية لأخذ بفكرة الكمال الإنساني، من أمثال Sibiuda و Bovelles و Charron، أعادوا إليه المكانة التي يستحقها في عالم الفكر، ومن ثمة انتقلت الفكرة إلى ديكارت لتأخذ أبعادا ودلالات جديدة، حيث جعل منها المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه محاولته التركيبية، وهو ما يدل عليه حضورها القوي في القسم الرابع من تأملاته الميتافيزيقية.

ولعل ما صرف اهتمام الدارسين لفلسفة ديكارت بهذه الفكرة ومكانتها في نسق التأملات هو طغيان النظرة الأحادية الجانب إلى التراث الديكارتي، مما أدى في نظر بعض المحللين إلى هيمنة تأويل واحد في الفلسفة المعاصرة وهو تأويل هايدجر الذي اختزل الميتافيزيقا الديكارتية إلى مجرد كونها امتدادا للمذاهب اللاهوتية السكولائية، وما يدل على ذلك، في نظره، هو ارتكازها على فكرة تناهي الوجود الإنساني التي تنطوي على فكرة الخطيئة والذنب.

ففي دراسته لمراحل تطور مفهوم الأنطولوجيا المتضمنة في أحد الدروس التي ألقاها عام ١٩٢٧، ذكر هايدجر أن ديكارت أخذ مفاهيمه الأنطولوجية الأساسية مباشرة عن سواريز وسكوت وطوماس الإكويني، من دون أن يقدم أي دليل على ذلك، وأضاف إلى ذلك قوله إن الميتافيزيقا القروسطوية ليست شيئا آخر غير اللاهوت، ومن ثمة تم سحب هذا الحكم على الميتافيزيقا الديكارتية، وما زال يتردد صداه إلى اليوم.

لاشك في أن الفلسفة الديكارتية لا تستبعد فكرة التناهي، ولكن هذه الفكرة ليس لها معنى سلبيا في هذه الفلسفة، بمعنى أنها لا تلغي إمكانية بلوغ الإنسان أقصى درجات الكمال. إن الارتقاء في مراتب الكمال يتحقق بشكل تدريجي، ولكنه يسير في اتجاه اللامتناهي. وهذه الحركة اللامتناهية في اتجاه الكمال هي الدليل على أن الإنسان، في نظر ديكارت، لا يمكنه أن يكون لا متناهيا، لأن اللامتناهي لا ينقصه شيء، ولذلك لا يحتاج إلى الحركة والنمو والتطور. ولكن اللامتناهي الثابت الإيجابي ليس نقيضا من حيث إيجابيته للمتناهي المتحرك، فالنمو والارتقاء هو شيء إيجابي، إنه كمال إنساني. إن المتناهي في هذه الحالة إيجابي وليس سلبيا. وتكمن إيجابيته وكماله الأساسي في امتلاكه للإرادة والحرية. يتجلى ذلك بوضوح في التأملات الرابعة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فالإنسان في نظر ديكارت حر في أن يختار تعليق الحكم كلما كانت المعرفة الواضحة المتميزة بحقيقة الأشياء التي يضطر إلى البت فيها غير متوفرة بعد. إن القدرة على تعليق الحكم تجعلنا أكثر كمالا رغم كوننا كائنات متناهية. هذه هي الأطروحة الأساسية المتضمنة في التأملات الرابعة.

ويقول ديكارت إنه ليس له أن يتأسف على أن الله لم يمنحه كمالا أكبر، بل إن عليه أن يشكره على أنه منحه القدرة على تعليق الحكم كلما كانت المعرفة غير واضحة وغير متميزة. وهنا يكمن الكمال الإنساني الأكبر في نظره، يقول بالحرف الواحد في نهاية الجزء الرابع من التأملات: "إنه أكبر كمال إنساني" «c'est la plus grande perfection de l'homme»، أو لنقل إنه الحد الأقصى من الكمال الذي هو كمال بالنسبة للإنسان لا بالنسبة لله ولا حتى بالنسبة للملائكة. لم تأخذ هذه الجملة بعين الحساب في التأويلات الأحادية الجانب للميتافيزيقا الديكارتية، فاختزلتها إلى مجرد كونها شكلا من أشكال اللاهوت السكولائي.

ويتجلى كمال الإنسان أيضا في كمال قدراته. يقول ديكارت في الجزء الرابع من التأملات إن الإنسان برغم كونه مخلوقا متناهيا فإنه يتوفر على ملكات تتصف بنوع من الكمال الخاص بالنوع الإنساني، وهي فكرة جريئة بالنظر إلى ظروف العصر الذي عاش فيه ديكارت. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ديكارت لا يستخدم مفهوم التناهي بالمعنى اللاهوتي الذي يدل على الطبيعة الشريرة للإنسان، والذي يتنافى بالتالي مع فكرة الكمال النسبي. كما أنه لا يستخدم مفهوم الكمال الإنساني بالمعنى الأنطولوجي الذي يدل على أن الإنسان هو أرقى المخلوقات جميعا، وهو ما يدل عليه معنى قوله في التأملات الرابعة إنه لا يحق له أن يشتكي من كون الله عندما خلقه لم ينزله في منزلة الكائنات الأكثر نبلا وكمالا، ونجد الفكرة نفسها في رسالته إلى إليزابيت Elisabeth بتاريخ ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٦٤٥، وهي فكرة تنسجم مع التصور الكوبرنيكي للكون الذي لم يعد تناهي الإنسان إذا كانت إرادته مطلقة ولا متناهية؟ كيف يمكن الجمع بين تناهي العقل ولاتناهي الإرادة لدى الإنسان؟

يتجلى تناهي العقل الإنساني في عدم قدرته على فهم الله أو على فهم غايته من خلق العالم. ولكن انعدام القدرة على فهمه لا يعني استحالة معرفته. فقد برهن ديكارت على وجود الله قبل أن يثبت وجوده هو ووجود العالم. ولذلك يقول بأن معرفة الله أيسر إليه من معرفة العالم. تكمن حدود العقل من وجهة النظر هذه في انعدام القدرة على فهم المطلق، لا في العجز على معرفته كما يقول كانط. إن فكرة الله في نظر ديكارت هي أكثر الأفكار وضوحا وتميزا. فإذا كان من خصائص المطلق أنه مستغلق على الفهم لمن نظر إليه، فإن معرفته، في المقابل، أيسر إليه من معرفة نفسه.

يدل مفهوم الكمال الإنساني على نمط تفكير يرتكز على الإيمان بقدرة الإنسان على معرفة الحقيقة اليقينية بالاعتماد على قدراته الطبيعية، ومما يدل على ذلك تأكيده في مناسبات كثيرة على أن سبب الأخطاء التي نرتكبها لا يرجع إلى وجود نقص في طبيعتنا الإنسانية ولكن إلى سوء استعمال قدراتنا العقلية وإرادتنا وحريتنا.

ويجب الاعتراف مع ذلك بأن مسألة العلاقة بين الميتافيزيقا والأخلاق عند ديكارت مسألة حساسة للغاية، فقد كانت ولا تزال موضوع خلاف لم يحسم بعد. يرى Ferdinand Alquié، مثلا، أن الفلسفة الأخلاقية عند ديكارت هي "شيء مضاف من الخارج إلى فلسفته". ونقل عنه Martial Gueroult، الذي دعم رأيه في هذه المسألة، قوله إنها نمت "خارج نسق" التأملات. قد يرجع السبب في اتخاذهما لهذا الموقف إلى عدم انتباه أي واحد منهما إلى فكرة "الكمال الإنساني الأساسي" وعدم تقديرهما للمكانة التي تحتلها في نسق التأملات. وإذا أمعنا النظر في هذه الفكرة تبين لنا مدى ارتباطها بفكرة وحدة الكائن الإنساني ومبدأ التمييز بين الروح والجسد. ولبيان هذه العلاقة يتعين علينا تحليل أسس الميتافيزيقا الديكارتية في أفق تحديد المكانة التي يحتلها الإنسان في فلسفة ديكارت.

ذكر ديكارت في رسالتين لأليزابيت بتاريخ ٢١ مايو/أيار و ٢٨ يونيو/ حزيران من عام ١٦٤٣- واللتان يمكن اعتبارهما بمثابة ملخص مركز لنتائج "التأملات"- أن فلسفته الميتافيزيقية تقوم على أسس ثلاثة مفاهيم أولية، تتمثل في نظره النماذج الأصلية التي تقوم عليها كل معرفة إنسانية وهي المفاهيم التي لدينا عن الروح والجسد والعلاقة

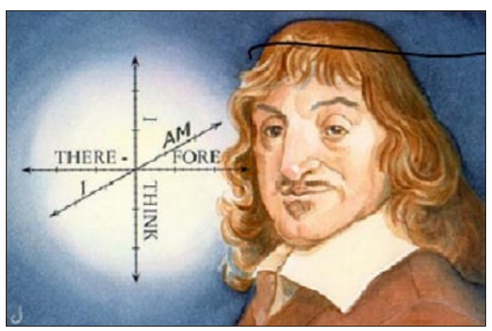

الإنسان يحتل فيه مكانة مركزية. وبقدر ما تنسجم مع التصور الكوبرنيكي بقدر ما تتعارض مع التصور اللاهوتي الذي يجعل من الإنسان أسمى المخلوقات جميعا. يقول في الرسالة المشار إليها: "وبدل أن ننشغل بمعرفة الكمالات التي توجد فينا بالفعل، ننسب للمخلوقات الأخرى النواقص التي لا توجد فيها لكي نسمو فوقها" يتحدد مفهوم التناهي،إذن، في علاقته بفكرة الكمال الإنساني، من حيث أن السعي إلى تحقيق أقصى درجة ممكنة من الكمال يتطلب الوعي بمواطن الضعف التي توقعنا في الخطأ. مما يدل على أن الإنسان لا يمثل أرقى الكائنات الموجودة في الكون.

وإذا كان في الإنسان شيء ما لامتناهي فهو الإرادة، تلك "الإرادة الكاملة المطلقة" حسب تعبير ديكارت نفسه في حواره مع Burman ولابد من الاعتراف هنا بأن هذه الفكرة تطرح مشكلة عويصة في ما يتعلق بتأويل "التأملات". كيف يمكن الحديث عن بين الروح والجسد: يتعلق المفهوم الأول بتصورنا للروح، ويشمل العقل والإدراك الحسي والإرادة ومختلف النوازع الانفعالية؛ ويتعلق المفهوم الثاني بتصورنا للجسم، وهو مفهوم الامتداد الذي تُرَد إليه أشكال الأجسام وهيئتها وحركتها؛ ويتعلق المفهوم الثالث بالعلاقة بين الروح والبدن، وهو مفهوم الوحدة التي تتجلى من خلال قدرة الروح على تحريك البدن، وقدرة البدن على التأثير في الروح وإثارة انفعالاتها. ونظرا لكون هذه المفاهيم أولية وبسيطة فإنه لا يمكن، في نظر ديكارت، تفسير بعضها بالبعض الآخر ولا إرجاع بعضها إلى البعض الآخر، على اعتبار أن كل مفهوم من هذه المفاهيم الثلاث نتأصل في النفس الإنسانية وليس مشتقا من غيره، ولذلك وجب استعمال كل مفهوم في المجال الخاص به. ويرى ديكارت أن هذه المفاهيم تدرك بطرق مختلفة: فالروح لا يمكن معرفتها إلا عن طريق العقل وحده، بينما يمكن معرفة الجسم بواسطة العقل والمخيلة معا وإن كانت معرفته بالمخيلة أحسن. وأما وحدة الروح والبدن فإن خير وسيلة للإحاطة بها هي الملكات الحسية.

ولابد من الإشارة هنا إلى وجود قراءات مختلفة لمضمون هذه الرسائل. يرى بعض المحللين أن مفهوم الإنسان جاء في المرتبة الثالثة بعد مفهوم الذات المفكرة ومفهوم الامتداد، وربما احتل المرتبة الرابعة إذا أخذنا بعين الحسبان مفهوما آخر أكثر بدائية من المفاهيم الأولية الأخرى، وهو مفهوم الله، الذي يعتبر بداية كل شيء في الفلسفة الديكارتية. وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن مفهوم الإنسان هو مفهوم مركب يجمع بين مفهوم الروح ومفهوم البدن. ولذلك عدّوا مفهوم الإنسان، الذي هو وحدة الروح والبدن، مفهوما مشتقا وليس مفهوما أوليا. ومما يترتب عن ذلك أن الفلسفة الديكارتية ليست فلسفة إنسانية بالأساس، بل يمكن تصنيفها ضمن الفلسفات ذات النزعة المضادة للإنسان anti-humanisme، والمقصود بذلك الفلسفات التي لا تجعل من فكرة الإنسان مبدأها الأول، وتكون بذلك أقرب إلى اللاهوت منها إلى الفلسفة.

وتنطلق القراءة الثانية من ملاحظة مفادها أنه ليس في منطوق الرسالتين ما يدل على أن مفهوم الإنسان باعتباره وحدة الروح والجسد مشتق من مفهوم الروح ومفهوم البدن. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن ديكارت حسم في الأمر ولم يترك الباب مفتوحا للتأويل حين صرح بأن كل واحد من المفاهيم الثلاث (الفكر والامتداد ووحدة الروح والبدن) هو مفهوم أولي ولا يمكن فهمه بالتالي إلا بالانطلاق منه هو ذاته وليس من غيره، وبأن إدراك كل مفهوم يتطلب طريقة خاصة، ولا يمكن إدراك مضمونه الدلالي من خلال إجراء مقارنة بينه وبين المفاهيم الأخرى. وعليه، فإن إدراك حقيقة الإنسان باعتباره وحدة الروح والجسد لا يشترط مسبقا توفر المعرفة الواضحة المتميزة بكل من الروح والجسد، ذلك لأن مفهوم الإنسان ليس مزيجا من الروح والمادة، ولكنه وحدة أو كلية تمثل واقعا قائما بذاته. ومع ذلك يمكن للعقل أن يميز في هذه الوحدة أو الكلية على سبيل التجريد بين الروح والجسد. ومن ثمة أمكن القول بأن مفهوم الإنسان هو من المفاهيم الأولية الأساسية التي تقوم عليها الميتافيزيقا الديكارتية وبأن الفلسفة الديكارتية هي من حيث العمق فلسفة إنسانية.

وتتجلى نزعتها الإنسانية في تركيزها على فكرة الكمال الإنساني التي تميزها تمييزا واضحا عن اللاهوت. ولكن إيمان ديكارت بفكرة الكمال الإنساني جلبت عليه سخط رجال الدين وعلماء اللاهوت من السكولائيين الذين تسببوا له متاعب كثيرة.

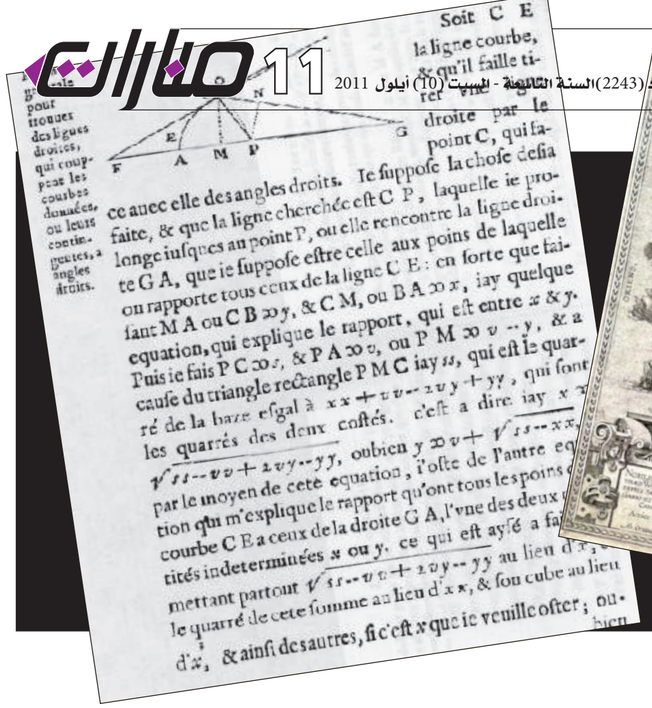
Soit C E la ligne courbe, & qu'il faille tirer une droite par le point C, qui face, & que la ligne cherchée est C P, laquelle ie prolonge iusques au point P, ou elle rencontre la ligne droite G A, que ie suppose estre celle aux poins de laquelle on rapporte tous ceux de la ligne C E: en sorte que faisant M A ou C B ∞ y, & C M, ou B A ∞ x, iay quelque equation, qui explique le rapport, qui est entre x & y. Puis ie fais P C ∞ s, & P A ∞ v, ou P M ∞ v − y, & a cause du triangle rectangle P M C iay ss, qui est le quarré de la baze egal à xx + vv − 2vy − yy, qui sont les quarrés des deux costés. c'est a dire iay x
√ss − vv + 2vy − yy, oubien y ∞ v + √ss − xx, par le moyen de cete equation, i'oste de l'autre equation qui m'explique le rapport qu'ont tous les spoins de la courbe C E a ceux de la droite G A, l'vne des deux tités indeterminées x ou y, ce qui est ayſé a fa
mettant partout √ss − vv + 2vy − yy au lieu d'
le quarré de cete somme au lieu d'xx, & ſon cube au lieu d'x, & ainſi des autres, ſi c'eſt x que ie veuille oſter; ou

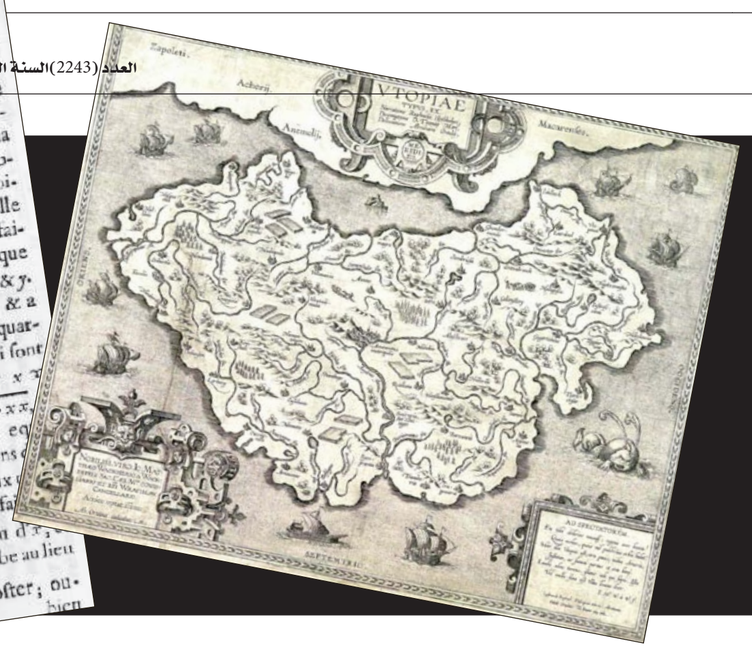

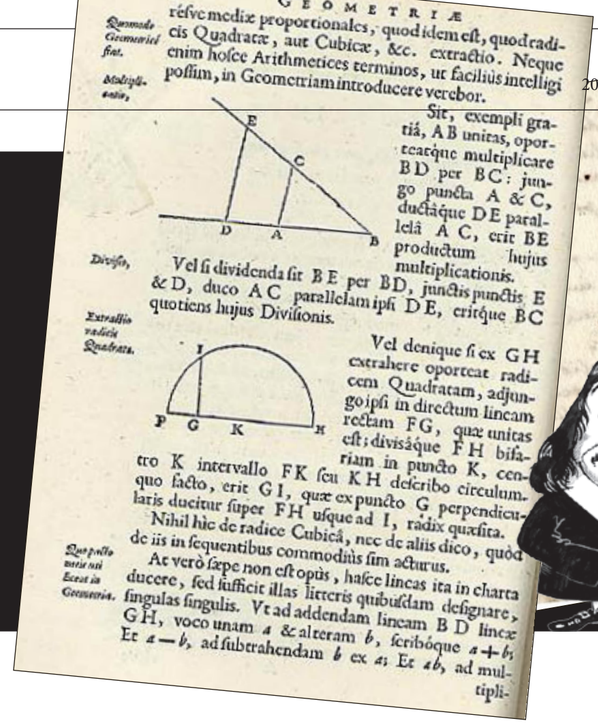
GEOMETRIÆ
réſve medix proportionales, quod idem eſt, quod radicis Quadratæ, aut Cubicæ, &c. extractio. Neque enim hoſce Arithmetices terminos, ut faciliùs intelligi poſſim, in Geometriam introducere verebor.
Sit, exempli gratiâ, AB unitas, oporteatque multiplicare BD per BC: jungo puncta A & C, ductâque DE parallelâ AC, erit BE productum hujus multiplicationis.
Vel ſi dividenda ſit BE per BD, junctis punctis E & D, duco AC parallelam ipſi DE, critque BC quotiens hujus Diviſionis.
Vel denique ſi ex GH extrahere oporteat radicem Quadratam, adjungo ipſi in directum lineam rectam FG, quæ unitas eſt; diviſâque FH bifariam in puncto K, centro K intervallo FK ſeu KH deſcribo circulum. quo facto, erit GI, quæ ex puncto G perpendicularis ducitur ſuper FH uſque ad I, radix quæſita.
Nihil hîc de radice Cubicâ, nec de aliis dico, quòd de iis in ſequentibus commodiùs ſim acturus.
At verò ſæpe non eſt opùs, haſce lineas ita in charta ducere, ſed ſufficit illas litteris quibuſdam deſignare, ſingulas ſingulis. Ut ad addendam lineam BD lineæ GH, voco unam a & alteram b, ſcribóque a + b, Et a − b, ad ſubtrahendam b ex a; Et ab, ad multipli-

ماهية الإغتراب في فلسفة ديكارت

محمد سليمان حسن

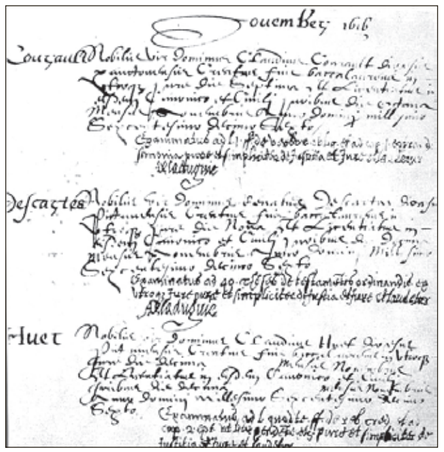
جامعة ديكارت

وثيقة تخرج ديكارت

قد رأى ديكارت "أن فكرة (الكمال اللامتناهي) هي البداهة الواضحة المتميزة". وهكذا كان اليقين الثاني نحو الله. "إن العالم لا يحتاج إلى شهادة خارجية. بل العالم هو الذي يكون بشهادة من الله، و إلا تحطم وصار أضغاث أحلام. أخذ السماء منحدرا له نحو الأرض". وقد استخرج من فكرة (الكمال اللامتناهي) براهين ثلاثة على وجود الله كمبدء لجميع الأشياء في الكون: البرهان الكيتوني – البرهان الوجودي – البرهان الشخصاني. اعتقد "ديكارت": "أن الفكر وحده بإمكانه أن يقنع البشر بقبول الحقائق الدينية والأخلاقية التي كان يراها أساس الحضارة. الإيمان لم يخبرنا بشيء لا يمكن إيضاحه عقلانياً. القديس (بولص) شخصياً قد أكد في الفصل الأول من رسالته إلى الرومان: أن ما يمكن معرفته عن الله أمر واضح تماماً للبشر لأن الله ذاته جعله واضحا... ويتابع ديكارت قوله: "إن بالإمكان معرفة الله بسهولة وبيقين أكبر من أي شيء من الأشياء الأخرى في الكون" إن شعوري بوجود العالم، هو هبة من الله. فالله لا يضع في مثل هذا الشعور، لو لم يكن هناك ثمة موضوع. فهو – الله – صادق. وبالتالي فالشعور بوجود العالم ليس من إرادتي بل من إرادة الله. والإيمان بوجود العالم يستلزم معرفة ماهيته. فالعالم مادة، المادة تحوذ صفة الامتداد. فالمادة جوهر مستقل عن جوهر النفس. وإن كان علينا أن نفهم الامتداد عند "ديكارت" فهو المعنى المجرد لا الحسي، والذي يتميز بمجموعة من الخصائص هي:

١- انه فضاء غير محدود، لا يحيط به إلاّ امتداد آخر. فهو إذن لامتناه، نستطيع أن نتذهن وراءه امتداداً ثانياً وثالثاً إلى ما لا نهاية.

٢- انه متجانس يقسم على أجزاء.

٣- انه مادة، كما أن المادة امتداد، ولا وجود للخلاء، إذ الخلاء مادة.

٤- انه امتلاء. وحركة الأجسام تفسر أنها حركة دائرية. إذن، الامتداد محض مادة والحركة محض امتداد. وهي ذات خصائص تلخص بست قواعد هي:

١- لم توجد الحركة إلا بأمر الله، لأن المادة جامدة بالأصل.

٢- الحركة ذات اتجاه تتخذه، وسرعة تسير بموجبها.

٣- لا تزيد الحركة ولا تنقص لأنها من الله والله لا يتغير.

٤- كل شيء يبقى على حاله ما دام لم يعرض له ما يغيره.

٥- كل جسم متحرك لا يميل إلى البقاء في حركته على خط مستقيم.

٦- إذا التقى الجسم المتحرك جسماً أضعف منه، فإنه يفقد من الحركة مقدار ما يعطي الجسم الأضعف.

٧ – في الأخلاق الديكارتية: قسم الباحثون الأخلاق الديكارتية على ثلاثة أقسام: المؤقتة والعلمية والكاملة.

الأخلاق المؤقتة: هي أخلاق تجريبية، تدفع الإنسان إلى إتمام واجباته. إنه عمل معقول Raisonnable لا عمل عقلاني Rationel. هذه الأخلاق المؤقتة تشتمل على ثلاث حكم أو أربع هي:

أ- الحكمة الأولى: يقول "ديكارت" في القسم الثالث من مقالته: "تقوم حكمتي الأولى على أن أخضع لقوانين بلادي، وعاداتها، محتفظا بالديانة التي أنعم الله عليّ بأن ربيت فيها منذ طفولتي. وأن أتمسك في الأمور الأخرى، بأكثر الآراء اعتدالا، واقلها إفراطا، مما أتفق على الأخذ به في ميدان العمل. أعقل الذين كان عليّ أن أعيش معهم، فقد تبين لي – منذ ذلك الحين، الذي بدأت فيه أن لا أقيم وزناً لآرائي الخاصة، رغبة مني في وضعها كلية موضع الإختبار – إنه ليس في مقدوري أن أعمل خيراً من الاقتداء بآراء أعقل الناس. لذا عقدت النية على أن أسير في خطا الذين كان عليّ أن أعيش بينهم. وإن كان قد بدا لي أن عند الفرس و الصينيين ما عندنا من أصحاب العقول. ثم تيقنت أنه يجب – كي أقف على حقيقة آرائهم – أن أنظر إلى ما يفعلون، لا إلى ما يقولون، لأن فساد أخلاقنا أقلّ عدداً من الذين يقولون كل ما يعتقدون. ولأن الكثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون. ذلك، لأن الفكر الذي نعرف به الشيء، يختلف عن الفكر الذي نعرف به أننا نعرف هذا الشيء. ولأن كلا من هذين الفكرين غالباً ما يكون دون الآخر. وقد اخترت من بين الآراء المقبولة على السواء، أكثرها اعتدالا، لأنها الأيسر دائما للتطبيق، والأحسن على الأرجح، ما دام الإفراط سيئا. ولأنني أظل أقرب إلى السبيل القويم – إذا وقعت في الخطأ – مما لو اتبعت أحد الطرفين، وكأن السبيل، الذي يجب أن أخذ به هو السبيل الآخر".

ب- الحكمة الثانية: يقول "ديكارت" في القسم الثالث من مقالته: "تقوم حكمتي الثانية، على أن أكون جهد استطاعتي، جازماً صامداً في أعمالي. وأن أتمسك بأكثر الآراء شكا، بعد أن أكون قد اقتربت منها، كما لو كانت مؤكدة للغاية. مثلي في هذا العمل مثل المسافرين.... ينبغي لهم أن يسيروا في جهة واحدة..."

ج- الحكمة الثالثة: يقول "ديكارت" في القسم الثالث من مقالته: "أن أغالب نفسي، دائماً، لا أن أغالب الحظ... عليّ أن أغير رغباتي، لا أن أغير نظام الكون. وبالجملة، عليّ أن أتعود الاعتقاد أنه لا شيء في متناول قدراتنا تماماً سوى أفكارنا. نحن عاجزون كل العجز عن أن نحقق ما لا نقدر عليه من الأشياء الخارجية بعد أن نبذل خير ما في طاقتنا. وقد بدا لي أنّ هذا وحده كاف ليعيدني عن أن أريد في المستقبل شيئاً لا يمكنني الحصول عليه. كما أنه كاف ليجعلني راضياً بما أنا فيه..."

د- الحكمة الرابعة: يقول "ديكارت" ثم أردت نتيجة لهذه الأخلاق، أن استعرض مشاغل الناس المختلفة في هذه الحياة، لأختار أفضلها، ولئن كنت لا أقول شيئاً عن مشاغل الآخرين، فقد رأيتني عاجزاً أن أفعل خيراً من المثابرة على العمل الذي اهتديت إليه. أي أن أنفق كل حياتي في تثقيف عقلي، وأن أتقدم قدر المستطاع في معرفة الحقيقة، تبعا للمنهج الذي خططته لنفسي.

٢- الأخلاق العلمية: هي أخلاق إيجابية، خارج الزمان والمكان. موضوعة لتصبح في متناول كل إنسان. فإلى أي شيء تستند هذه الأخلاق العلمية؟ في نظر "ديكارت": "إن غاية الفلسفة يجب أن ترمي إلى سعادة المرء" وقد نظر ديكارت إلى الجسد نظرة إيجابية، إذ قال: "إن تعاستنا منه "ثم قال" أن سعادتنا منه". الأخلاق العلمية كما تصورها "ديكارت" هي "بمثابة قانون صحي يمكنّ الإنسان من السيطرة على الأهواء والتحرر منها لتوجيه عواطفه نحو السعادة المطلوبة".

٣- الأخلاق النهائية: على كل إنسان أن يتقيد بالأخلاق النهائية. وقد ذكر "ديكارت" قواعدها في رسالة له إلى الأميرة "اليزابيت" بتاريخ ٤/أب/١٦٤٥م/ قال معددا قواعد ثلاث هي:

أ- ينبغي لنا أن نستخدم دائماً عقولنا، قدر المستطاع، أن نعرف ما يجب عمله أو رفضه، في جميع ظروف الحياة. ب- ينبغي لنا أن نعقد نيّة صامدة، ثابتة، على إنجاز كل من ينصحنا العقل به، فلا نميل بأهوائنا من إرشاداته. ج- ينبغي لنا أن نعتبر، ما أمكننا ذلك، ونحن نسلك هذا الطريق على ضوء العقل، كون الخيرات التي تتجاوزنا ليست في متناول يدنا. إذن يجب أن لا نفكر بها ولا نرغب فيها. ثامناً – ماهية الإنسان في فلسفة ديكارت: يؤكد ديكارت على أنه من الضروري أن يتعايش العقل مع الذات. هذه هي ماهية الإنسان. فعالم الحواس عالم خداع، ومعطيات التجربة غير يقينية. إذ يكتب في القسم الرابع من المقالة: "عرفت من ذلك أنني جوهر كل ماهيته أو طبيعته لا تقوم إلا على الفكر، ولا يحتاج في وجوده إلى أي مكان، ولا يتعلق بأي شيء مادي، بمعنى أن "الأنا" أي النفس التي أنا بها ما أنا، متميزة تمام التمييز عن الجسم، لا بل إن معرفتنا به أسهل، ولو بطل وجود الجسم على الإطلاق، لظلت النفس موجودة بتمامها". و برأي ديكارت فإن جدل العلاقة بين الإنسان والله، أو بين الأنطولوجي الإنساني الميتافيزيقي لا تنم من خلال الأنطولوجي الإنساني، بل من خلال الميتافيزيقي الموجود في هذا الأنطولوجي. يقول في القسم الرابع من المقالة: "فلاح لي أن أبحث من أين تأتى لي أن أفكر في شيء أكمل مني، فعرفت بالبداهة أن ذلك يرجع إلى وجود طبيعة هي في الحقيقة أكمل... في هذا التصور يدفع بنا ديكارت إلى إلغاء العقل الموضوعي باتجاه العقل الذاتي، وبالتالي وحدانية الحقيقة وفرادتها، وعدم خضوعها للعقل الجمعي. يقول ديكارت بشأن الذات في التأمل الرابع: "ليس هناك سوى الإرادة التي أجربها في بهذا الكبر حتى إنني لا أعرف ما هو أوسع منها وما هو أكثر امتداداً.. بحيث إنها هي التي تعرفني بخاصة أنني أحمل صورة الله وشبهه "هذا ما دفع ديكارت إلى وضع (الكرم) فوق كل شيء كقيمة معيارية. وهو يؤكد ذلك في كتابه "أهواء النفس" قائلاً: "أعتقد أن الكرم الحق الذي يجعل الإنسان يحترم نفسه إلى أعلى حد يمكن أن يحترم نفسه فيه بشكل مبرر، يقوم في جزء منه، على أنه لا شيء يخصه حقا سوى هذا التصرف الحر بإرادته و إلا لماذا ينبغي أن يلام إن لم يكن لأنه أحسن أو أساء التصرف بها، ويقوم في جزء آخر، على أنه يحس في ذاته بعدم ثابت دائم في أن يحسن التصرف بها، أي أن لا تعوزه الإرادة أبداً لمباشر وينفذ جميع الأشياء التي يراها أفضل شيء، وذلك يعني أن يتبع تماماً درب الفضيلة". إذا، المعرفة العقلانية وجانب الإرادة وحرية الاختيار، لا تتعارضان، لأن الإنسان كائن مفكر كما يقول ديكارت في القسم الرابع من المقالة: "شيء يشك، ويتصور، ويتأكد، ويفكر، ويريد، ولا يريد، ويتخيل أيضاً ويحس.

أهم أفكاره

نظرية المعرفة

شك ديكارت في المعرفة الحسية سواء منها الظاهرة أو الباطنة، وكذلك في المعرفة المتأتية من عالم اليقظة، كما شك في قدرة العقل الرياضي على الوصول إلى المعرفة، وشك في وجوده، ووجود العالم الحسي، إلى أن أصبح شكه دليلا عنده على الوجود، فقال "كلما شككت ازدت تفكيرا فازدت يقينا بوجودي".

المنهج الديكارتي

هو المنهج الجديد في الفلسفة، وبسببه سُمي ديكارت بـ(أبو الفلسفة الحديثة) ، ويقوم المنهج الديكارتي على أساسين، هما:
١- البداهة: أي التصور الذي يتولد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الأنوار العقلية.
٢- الاستنباط: أي العملية العقلية التي تنتقلنا من الفكرة البديهية إلى نتيجة أخرى تصدر عنها بالضرورة.

الثنائية الديكارتية

يفرق ديكارت بين النفس والجسد، ويرى أنهما جوهران مختلفان تماما، ويقول: "إنني لست مقيما في جسدي كما يقيم الملاح في سفينته، ولكنني متصل به اتصالا وثيقا، ومختلط به بحيث أؤلف معه وحدة منفردة، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما شعرت بألم إذا أصيب جسدي بجرح، ولكني أدرك ذلك بالعقل وحده، كما يدرك الملاح بنظرة أي عطب في السفينة".

الله

يعتقد ديكارت أن الله يشبه العقل من حيث إن الله والعقل يفكران ولكن ليس لهما وجود مادي أو جسمي، إلا أن الله يختلف عن العقل بأنه غير محدود، وأنه لا يعتمد في وجوده على خالق آخر، ويقول: "إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخير لدرجة لا حدود لها".

الأخلاق

جعل ديكارت علم الأخلاق رأس الحكمة، وتاج العلوم، وأنه لابد من الاطلاع على كل العلوم قبل الخوض في علم الأخلاق، وقال: "مثل الفلسفة كمثل شجرة جذورها الميتافيزيقيا، وجذعها العلم الطبيعي، وأغصانها بقية العلوم، وهذه ترجع إلى ثلاثة علوم كبرى، هي: الطب، والميكانيكا، والأخلاق العليا الكاملة، وهذه الأخيرة تتطلب معرفة تامة بالعلوم الأخرى، وهي أعلى مراتب الحكمة".

أهم مؤلفاته

كتب ديكارت ثلاثة مؤلفات رئيسية، وهي:
١- رسالة في منهج التصرف العقلي السليم للمرء والبحث عن الحقيقة في العلوم أو رسالة في المنهج (١٦٣٧م).
٢- تأملات في الفلسفة الأولى (١٦٤١م).
٣- مبادئ الفلسفة (١٦٤٤م).

مشـروع ديكارت الفلسـفي وإعادة ترتيب الوجود

وليد المسعودي

يعد رينيه ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) واحدا من الفلاسفة الذين لعبوا دورا كبيرا في تغيير مسارات الفلسفة الغربية من سيادة وانتشار النزعة الغائية والمسلمات المسبقة حول الطبيعة والانسان الى النظرة الجديدة القائمة على البحث العلمي الحر من دون عوائق ابستيمولوجية معينة، إذ استفاد كثيرا من تطوير المنهج الرياضي ومحاولة تطبيقه على الطبيعة والميتافيزيقا والمعرفة البشرية، بعد ان كانت الفلسفة غارقة في الاشكال المدرسية التقليدية التي تعتمد على الرمز والاسطورة والمتعاليات الالهية بعيدا عن اية رؤية او نظرة من الممكن ان تقود الى التداخل بين المادي والمعرفي اي بين المنجز العلمي والمعرفي لدى الانسان وبين المادي من طبيعة وموجودات محاطة بأنظمة فكر وتصورات معينة. فكانت الخطوة الاولى التي خطاها ديكارت تكمن في ثنائية المادة والعقل بصفتهما عالمين مختلفين متناقضين، من حيث ان الاول اي المادة تملك الكثافة والحركة وحيازة المكان وامكانية القياس " ضمن رؤية ديكارت " اما العقل فيملك جاهزية التفكير وغياب الحضور المادي اما الخطوة الثانية فتظهر من خلال مكتشفات غاليلو وكوبرنيك حول حركة الاجسام السماوية ومدى ارتباطها بصيغ جديدة معتمدة على المنهج الرياضي حتى تصور ديكارت ضمن ذلك ان الله ماهو إلا عالم هندسة وان الرياضيات هي لغة العلم، اشارة الى ما تملكه الأخيرة اي الرياضيات من دقة متناهية لا يتخللها الشك او عدم اليقين (مدخل الى الفلسفة/جون لويس/المكتبة الاشتراكية ـ بيروت/الطبعة الثالثة ص ٨٣). وهنا يوضح ديكارت مادية العالم وطبيعته المتحركة من خلال استخدامه المنهج الرياضي الذي يقود بدوره الى جعل الطبيعة والعالم والموجودات ماهي الا تصورات في اذهاننا لا تملك الوجود الواقعي، هناك الحركة والكثافة اما الوجود الواقعي والمحسوس فانه يرتبط بالعقل فحسب. اليس في ذلك الأمر محاولة اولي في تأسيس" مركزية الانسان" من خلال جعل مصادر الموجودات الطبيعية في اذهاننا وان العالم الطبيعي تحكمه القوانين الميكانيكية من جهة وكذلك نسيان للطبيعة ذاتها من خلال ذلك المحو لما موجود من طبيعة واثرها كالطعم والرائحة واللون والحياة والجماد.. الخ من جهة اخرى، فكل هذه لا تمت بصلة الى العالم الطبيعي، اي إنها مجرد أشياء في أذهاننا " وان العالم لا يكتسب تنوعه وثرائه الكيفي إلا من خلالنا " من جهة اخري (المصدر نفسه/ص ٨٣).

دفعة أساسية للفلسفة

فتحولت بذلك العلاقة بين الانسان والمعرفة من العمودي الى الافقي اي من الميتافيزيقا بصفتها رائدة للتفسير والفهم بشكل غائي لا يحكمه منطق التطور والتغيير الى الانسان الذي يفكر وان بأمكانه ان يحقق التجاوز، وان يكون ذلك الإنسان "سيدا على الطبيعة ومالكها الوحيد" ولكن من الممكن ان نشير هنا الى مفارقة تكمن لدي ذلك السيد الذي حلم به ديكارت في القرن السابع عشر كان هنالك نقيضه، متمثلا في جميع المنبوذين والمهمشين والسجناء الذين يعيشون في عالم بلا طبيعة انسانية من خلال عملية الجمع في مكان واحد سجني يتمثل بالمشفى الذي انجز في القرن السابع عشر والذي جمع الفقراء والمجانين والمبدعين الذين يمتلكون معرفة مغايرة لنسق السلطة السائد حينئذ، فضلا عن المجرمين والخارجين عن القانون على حد سواء. ان ديكارت أعطى من خلال ذلك الامر اي من خلال هذه المركزية الجديدة دفعة اساسية للفلسفة في تحولاتها القادمة من حيث بداية التفكير ومركزته لدي الانسان ووجوده ومن ثم هنالك الملاحظة والتجربة في الحقب التالية بعد ديكارت، إذ نجد على سبيل المثال ان (كانت) لم يتبع اسلوب الشك في الاطاحة بالنظام القديم للمعرفة من اجل ان يؤسس صرح العلم الجديد بل كان ذلك الاخير اكثر سيادة ورسوخا وجاهزية من حيث المعرفة الجديدة القائمة على العلم واليقين الكلي من النتائج الجديدة، فلم تعد الحاجة حينها الى الشك بعد ان وصلت النتائج والرؤي الى اشكال مغايرة ومختلفة عما كانت في زمن ديكارت الذي كان يهدف الى استخدام منهج الشك من اجل تحقيق التجاوز والتقدم في مجالات العلم والمعرفة معتمدا على المادية الميكانيكية الصاعدة ومكتشفاتها الجديدة (دراسات في الفلسفة/العلم في الفلسفة/ حمادي بن جاء بالله/دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٩٨٦ص٣٩).او كما يقول ميشيل فوكو "ان ديكارت شخصية رمزية تبحث عن اليقين في مشروع قابل لضمانه " خصوصا وان الانسان في زمن ديكارت اي في العصر الكلاسيكي لم يكن يملك دور الخالق ورئيس الحراقين (الصانعين) دور محفوظ لله كما يري فوكو بل كان يملك المرتبة الثانية اي دور القدرة على التفسير والتوضيح وليس السيطرة والإبداع التي تحققت فيما بعد من خلال امتلاك الوضوح في المفاهيم متمثلا في كوجيتو ديكارت (انا افكر ــ اذن انا موجود) (ميشيل فوكو... مسيرة فلسفية/اوبير دريفوس ــ بول رابينوف/مركز الانماء القومي/بيروت ـ لبنان ص ٢٤ ـ ٢٥).

ديكارات يتراجع!

يقول المفكر صادق جلال العظم: ان "ديكارت لم يكن توفيقيا على طريقة الآراء الشائعة بشأن التوفيق بين رأي الحكيمين او بين الشريعة والفلسفة اوما شابه ذلك بل انه كان مثل علماء عصره قد وجدوا طريقة او اخري للتعايش مع المعتقدات الدينية والروحية وذلك من اجل تضييق رقعة شمولها وتقليص دائرة نفوذها تدريجيا لصالح المادية الميكانيكية " (عن الفلسفة الحديثة وتاريخها/مقابلة مع صادق جلال العظم/ مجلة دراسات عربية ـ العددان ٢/١ ـ ١٩٨٥ ــ ص٩٥) وهنا نجد ذلك التعبير صحيحا عندما نعي جيدا كيف كان يعاني زمن ديكارت من هيمنة "المدرسيات " اي الاشكال التقليدية في الفهم والمعرفة وخصوصا ما كانت تمارسه سلطة الكنيسة من تضييق كبير لمصادر المعرفة والعلم الجديدين اللذان عملا على الاطاحة بسلطتها الدينية والمعرفية، وديكارت ذاته قد تراجع عن نشر كتابه "العالم" الذي يوجز فيه طبيعة الاشياء المادية وحركتها وفقا للتطورات العلمية الحديثة، عندما سمع بالحكم القاسي الذي صدر ضد غاليلو من قبل الكنيسة. إذ تم تقسيم العالم حينئذ الى ثنائية من المعرفة والقيم او الى عالمين احدهما مرتبط بالعلوم الجديدة الصاعدة ومفاهيمها تلك التي تشمل، الامتداد، العلة الفاعلة، التكرار، الكم، الحتمية، القصور والسكون من جهة والمفاهيم المرتبطة بالنفس او الروح تلك التي تشمل، الفكر، التباين، الغائية، الحرية، الكيف وغيرها ضمن الانطولوجيا التقليدية (نفس المصدر/ص٩٥).

مفهوم الطبيعة عند ديكارت

يتحدد من خلال المادية الميكانيكية التي تعتمد على المنهج الرياضي وذلك الاخير استطاع ديكارت ان يطوعه لصالحه الى حد كبير من خلال ايمانه بأن كل ماهو سائد في الطبيعة خاضع الى معادلات رياضية جبرية إذ يقول بهذا الصدد " ان العالم كتاب صنف بلغة رياضية والانسان لايستطيع، بدون هذه اللغة ان يفهم كلمة واحدة من كتاب هذا العالم " (رينية ديكارت/ابو الفلسفة الحديثة/الدكتور كمال يوسف الحاج/ منشورات دار مكتبة الحياة/الطبعة الاولي ــ بيروت ١٩٥٤ ــ ص ١٨٠) وهنا تدخل الآلية في صياغة كل ما موجود في الكون من اصغر الاجسام الموجودة الى اكثرها تعقيدا و تركيبا، فالانسان على سبيل المثال هو مادة متحركة بطريقة رياضية جبرية تسير نحو غاية معينة، وهذه الغاية مقدرة من قبل الله، وذلك لان المادة جامدة الاصل لم تنبثق فيها الحركة إلا من خلال الارتباط الميكانيكي القديم من قبل المطلق او المحرك الاول، وهكذا يوجد ما يقف على نقيض من هذه المادة وهو العقل الذي لا يتحرك او يلتقي مع المادة، بحيث تنعدم الفاعلية بين العقل والمادة، الجسد والروح في الطبيعة ذاتها لان وجودهما قائم على الانفصال وليس الاتصال، الامر الذي يقود الى الفوضى وعدم التوازن بسبب هذه الثنائية التي عمل على كشفها ديكارت بين عالمين مختلفين من جهة، وكذلك تقرير حقيقة لا تنتمي الى العلم بصلة من حيث الاعتماد على وضوح الافكار في العقل المنطقي معتمدا على النظرة الذاتية وليس على اساس الملاحظة والتجربة التي اصبحت جزءا اساسيا في مقياس حقيقة الاشياء ووضوحها في الفكر العلمي الحديث من جهة اخري، وبهذا الصدد يقول جون لويس: " ان النظرة الذاتية هي منبع ذلك الفيض من الخرافات والاساطير التي أملتها علينا ما سُمي بالافكار الواضحة المباشرة خلال قرنين ونصف قرن " (مدخل الى الفلسفة ص ٨٧) علما ان ديكارت كان بعيدا عن الاهتمام بالحقيقة اهتماما اكاديميا وبحثيا بل كانت مرتبطة اي الحقيقة والفلسفة لديه كأسلوب للحياة والعيش وتفسير العالم مثله مثل افلاطون وارسطو وتوما الاكويني وليبنتز وسبينوزا وكانط وهيجل. ان الطبيعة ضمن ماديتها لدي ديكارت لا تحمل الانغلاق او النهاية بل تملك الانفتاح الدائم على معطيات عالم غير محدد او مغلق ضمن جاهزية معينة من القيم والمعرفة والتغيرات والفساد.. الخ بل هنالك وحدة القوانين التي تخضع لها هذه الطبيعة بعيدا عن التصورات التي كانت تضفيها القرون الوسطي، تلك المتعلقة بوجود وتحديد العالم وفقا لتدرجات معينة تمليها سلطة معرفية تضبط الزمان والمكان ضمن إطارها، بحيث يتحول البشر الى كتل مادية لا تحمل التأثير على عالمها، ما دام ذلك الاخير محدد سلفا وفقا لارادة معينة لديها الحضور والهيمنة الى حد بعيد، وما عمله مشروع ديكارت يكمن في إعادة صياغة المكان وإعطائه صبغة هندسية جديدة تغير المفهوم القديم للمكان، القائم على النظرة الارسطية، تلك التي تؤكد ان المكان متباين الاجزاء، ليحل محله المفهوم الجديد للهندسة الاقليدية الذي يعتبر المكان "متجانسا لا متناهيا، والذي يعد مطابقا في بنيته للمكان الواقعي " كما يري ذلك (أ. كويري)، الامر الذي ادي الى تخلي الفكر العلمي عن جميع الاعتبارات التي لا تنتمي الى المعرفة الموضوعية والعلمية، تلك التي تنتمي الى مجال القيم وتدرج الكمالات الاخري، وبذلك حدث انفصال بين عالم الطبيعة وعالم القيم (درس الابستيمولوجيا او نظرية المعرفة/عبد السلام بنعبد العالى سالم يفوت/الطبعة الثانية/دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ١٩٨٦ ـ ص ١٦). هذا المكان الجديد جعل الانسان يسيطر على الشروط المادية للطبيعة ويستثمرها لصالحه من حيث وجود العلاقة الجديدة معها، تلك التي تمثل في التأثير المباشر عليها، وكذلك اخضاعها لمصلحة الكل الاجتماعي البشري، من حيث التطورات والتغيرات التي تباشر لمصلحة الانسان ذاته، ذلك ما يكشفه المشروع الغربي الحديث، بالرغم من العلاقة المزدوجة بين الذات والاخر، وهنا الذات الغربية ضمن مجالها الخاص اي ضمن طبيعة التعامل مع الاخر بصفته أداة للاستغلال والاكتشاف على حسابه وان تم تخفيف اثر ذلك عبر عصور لاحقة ومتغيرة بفضل الثورات الفكرية والعلمية، تلك التي كشفت مركزية الغرب بشكل مهيمن على الاخرين، وكذلك العلاقة مع الآخر غير الغربي بصفته اداة للاستغلال والخضوع عبر ادوات كثيرة تتمثل في الوصاية والهيمنة وإلحاق الاخرين ضمن تبعية دائمة تحول من سيطرة الانسان من حيث الجوهر على الطبيعة وتحقيق السعادة والرفاة من دون تأثير اساليب الصراع والاستغلال بين البشر انفسهم. يقول (اندرية ناتاف) " ان نظام ديكارت يقيم أمرا مطلقا هو علاقة تدجين الطبيعة والسيطرة عليها واستثمارها. علاقة من النوع الاقطاعي! لقد قادتنا الى حيث نحن اليوم مع كوكب يسير نحو التخلي عن جوهره " (الفكر الحر/ اندريه ناتاف/ترجمة: رندة بَعث/المؤسسة العربية للتحديث الفكري ص ٧٦) وهنا نقول ان مشروع الغرب الحديث كان ضروريا ومهما لنجاح التجربة البشرية الجديدة، ولكن ان تتحول العلاقة مع الكائن ـ الانسان الى علاقة النفي عن جوهره البشري، فذلك تدخل فيه اعتبارات تتعلق بطبيعة الحضارة الغربية ذاتها من حيث تحولها وتطورها المتواصل عبر عقود وثورات معرفية وعلمية واجتماعية قادت الى سيادة طبقة اقتصادية معينة دون اخري، الامر الذي انشأ هذه العلاقة المزدوجة مع الانسان ـ الاخر، وهنا نجد ان المجتمعات التي تلجأ الى الارواحية والقيم المفارقة للجوهر الانساني انما تقوم بذلك نتيجة النكوص والشعور بفقدان التوازن مع العالم المعاش، سلطة ومعرفة وسياسة مهيمنة على وعي ذلك الانسان. الامر الذي يجعلها في حالة البحث عن مخلص لها من الطبيعة، القائمة على الحصر والضبط ضمن قيم معينة تحد من نشوء

لقد كان ديكارت يعتمد على الاساس الكبير في منهجه من اجل ان يتوصل الى حقائق يقينية بعد انتهاء مراحل الشك وذلك الاساس يكمن في الكوجيتو المشهور " أنا أفكر ـ اذن انا موجود، الذي لا يمكن وصول الشك اليه، لانه هو من يستخدم اسلوب زعزعة اليقينيات حول مجمل القضايا التي تقف حائلا دون التفكير والسؤال والشك الفاعل والمتواصل، فالكوجيتو هو المناعة الحقيقية التي يتناولها العقل الانساني ضد كل ما يصيب جسد المعرفة والحقيقة والعلم من تعثرات وامراض من شأنها ان تقف دون الوصول الى يقين واضح ومعين حول القضايا التي يطرحها ديكارت، وذلك لأن الذات الشاكة هي ذات مفكرة تملك الوجود عن طريق الفكر، وهنا يصل ديكارت الى معرفة الوجود عن طريق الفكر

ووجود الفكر الحر الذي يؤسس ويطور علاقة الانسان مع الآخر على حد سواء بشكل يجمع التواصل والتعايش والاهتمام ونبذ علاقة المهيمن والمهيمن عليه، ذلك ما لم تعمل على تشكيله الحضارة الغربية ضمن شكلها المعاصر.

الشك عند ديكارت يزحزح الصخرة ويهز البناء القديم

لقد ساعدت التجربة التي افتتحها غاليلو على من خلال المكتشفات الحديثة تلك التي اسست عملية الفصل فيما بعد بين ماهو تجريبي وما هو تأملي، تحديدي، ساعدت ديكارت على الامكانية في طرح الاسئلة تحت عين الرقيب اللاهوتي، الامر الذي ادي الى نشوء الكوجيتو المشهور لديه متمثلا بأنا افكر ـ اذن انا موجود، من خلال منهج الشك لديه، وذلك الاخير اي الشك من شأنه ان يحدث عملية المراجعة العلمية والدقيقة حول مجمل التصورات والافكار والحقائق التي تحيطنا، فهل استطاع ديكارت من خلال الشك ان يزيل او يزحزح الصخرة التي كانت تستند عليها حقيقة العالم ضمن البناء القروسطي التقليدي؟ وماهي قيمة الشك الذي انجزه ديكارت؟ البداية كانت متمثلة في التقليد والتربية، في صور المعارف والحقائق التي تلقاها الانسان منذ الطفولة، فأصبحت ضمن مجال اليقين الكامل والعرف الذي لايمكن التفكير بعدم مصداقيته، وعودة ديكارت الى الافكار الاولية للطفولة يؤكد الحاحه الشديد على إعادة عملية الخلق والتكوين من حيث الاسس والبنى الفكرية بالتوافق مع العلوم الجديدة في عصره من اجل ان يبني في العلوم شيئا ثابتا ومستقرا، خصوصا بعد ان عمل التقليد على مفارقة العقل الانساني لجميع مصادر السؤال والشك والقراءة الجديدة التي تبتعد عن "التزمن" اي ثبات الزمان ضمن صنمية معينة من الافكار والحقائق، ومن هنا بدأ ديكارت في منهج الشك الحازم حول الافكار التي يتصورها العقل في وضوح ويقين كاملين، الى القراءة عبر الاستقراء الدقيق لهذه الافكار لاكتشاف النتائج الجديدة من خلال التمييز بين الافكار الواضحة التي لا تقبل الشك وبين الافكار التي من الممكن وصول الشك اليها (مدخل الى الفلسفة/ص ٨٢).

الشمس متغيرة

بعد ذلك ينتقل الى الشك في الاحساسات من حيث تقلبها وتغيرها الدائمين وصولا الى فكرة ان هذه الاحساسات لا تعبر عن حقيقة الواقع الخارجي، بل تملك الكثير من الزيف وعدم اليقين، وهكذا يغدو الالم الذي يشعر به الإنسان الذي فقد أحد أعضائه على سبيل المثال لا يمكن الوثوق به، كذلك الحال مع رؤية الإنسان لبعض المناظر والصور في الطبيعية عن بعد لا يضمن الوصول الى حقيقتها، إذ يقول في التأمل الثالث " لاحظت في احوال كثيرة ان هناك فرقا كبيرا بين الموضوع وفكرته: فمثلا أجد في نفسي فكرتين عن الشمس متباينتين كل التباين، احدهما مصدرها الحواس، ويجب ان تندرج تحت جنس الأفكار، التي قلت آنفا انها آتية من الخارج، (الشمس في غاية الصغر) والاخرى مستمدة من ادلة علم الفلك اي من بعض معان مفطورة في نفسي او من صنعي علىوجه ما (وبهذا تظهر الشمس اكبر من الارض اضعافا كثيرة) " (رينية ديكارت.. ابو الفلسفة الحديثة /كمال يوسف الحاج/ منشورات دار مكتبة الحياة/بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٧٨) وهكذا يتوصل ديكارت الى ان الواقع الخارجي لا يحمل الاثر الحقيقي إلا في اذهاننا وما موجود يحمل التبدل والتغير، كذلك الحال مع شكه في بدنه يجعل الواقع حلما من خلال افتراضاته حول حركة اجسادنا ما هي إلا أحلام عابرة، غارقا بذلك في مثالية تلغي اي دور لأجسادنا وحركتها في الواقع المحسوس والمعاش من اجل ان يعطي لمنهج الشك لديه الفاعلية والانجاز ليثبت حقيقة كامنة لديه تفصل بين الجسد كمادة فاعلة ومتحركة وبين النفس، في ثنائية لا تحمل الاتصال والارتباط والتعايش بل الانفصال والاغتراب فيما بينهما بالنسبة لديكارت الذي واجه اشكالية تكمن في طبيعة العلاقة بين عالم العقل وعالم المادة بين العقل والجسد، وصولا الى شكه في الحقائق العلمية التي يصعب الشك فيها لانها تملك مصادر الوضوح وعدم التغير والتبدل مثل الاحساسات والانفعالات فشك فيها عن طريق الافتراضات والمخيلة البشرية التي تفترض اشياء غير معقولة وواضحة تتمثل في ان الله على سبيل المثال قادر ان لا يكون هنالك الكثير من موجودات الطبيعة وما تحمل من اثر محسوس وواضح لدى الانسان مثل الارض والسماء والنجوم وما اشبه من ذلك اي ان الله قادر ان يجعلها غير موجودة كما هي عليه من حيث الشكل واللون والكم والعدد والمكان والزمان.. الخ (نفس المصدر ـ ص ٨١).) هناك من يقول ضمن جميع تواريخ الفلسفة ان منهج الشك لدي ديكارت أوصله الى ثنائية المادة والعقل، هذه الثنائية كانت مفيدة كثيرا بالنسبة للعلم الفيزيائي كي يتحرر من جاهزيات المعرفة التي تبثها القرون الوسطى " وعلومها " تلك المتعلقة بالالهيات والارواح والنفوس والمقاصد الالهية.. الخ، ولكن المفكر صادق جلال العظم يقول عكس ذلك، بأن ديكارت قد توصل الى هذه الثنائية عن طريق "اعتبارات ومشكلات تتعلق بالمادية الميكانيكية وفلسفة العلم وبأبحاثه الرياضية من جهة، وكذلك من خلال اعتبارات اخرى مهمة تتعلق بالانطولوجيا الروحية الموروثة والمكرسة دينيا ومؤسساتيا من جهة اخرى "(مقابلة مع صادق جلال العظم/مجلة دراسات عربية/ العددان ١/٢/١٩٨٥/ص٩٥) ونحن هنا نقول ان منهج الشك لدى ديكارت كان نتيجة للابحاث الرياضية والعلمية والمكتشفات الجديدة ضمن عصر ديكارت ولا يدخل كسبب وحيد في الوصول الى هذه الثنائية من اجل ان يرسي دعائم العلم الجديد الذي كان يهدف اليه ويعزز قواعده المادية والعلمية عن طريق منهج الشك، بالرغم من ان ذلك الأخير كان مظللا الى حد بعيد، وذلك من خلال نتائجه النهائية التي توصل اليها بشأن الافكار القابلة للوضوح وتلك التي تملك الوضوح الفطري متمثلا بما هو خارج عن اذهاننا وارادتنا البشرية، فالله على سبيل المثال من البديهيات التي لا يمكن ان يتطرق اليها الشك وذلك لان الله يملك هدايتنا الى الحقيقة، وهنا نجد كلام ديكارت واضحا عندما يقول: " انه ما دمنا نؤمن بوجود الله فان الله لن يسمح ان نُضلل " (مدخل الى الفلسفة/ص ٨٦). وهذه الفكرة توصل اليها ديكارت بواسطة المصادر الاسكولائية او عن كتابات آباء الكنيسة تلك التي تتمثل في ماهو اكبر لايمكن ان ينتج ما هو اقل، وهنا تدخل لعبة اللغة في تبيئة اثر الفوقي غير المدرك على الانسان باعتباره حمالا للكمال والهيبة، التي تنتمي إلى معرفة تندرج ضمن التأملات غير العلمية والدقيقة أي ضمن سلم القيم الدينية والروحية لدى الانسان (الموسوعة الفلسفية/فؤاد كامل ـ جلال العشري/نقلا عن الإنكليزية/دار القلم ـ بيروت /١٩٨٣ ـ ص ١٩١) او كما يقول هكتور هوتون " ان ديكارت قد صاغ خبرته وفق قالب المسند والمسند إليه. كان قد ورث التقليد الاغريقي بخصوص ايمانه بشيء ما، خفي، ظواهر تحتية ساندة، مسند اليه " (متعة الفلسفة/هكتور هوتون/بغداد ـ بيت الحكمة ٢٠٠٢ص٥٧). لقد كان ديكارت يعتمد على الاساس الكبير في منهجه من اجل ان يتوصل الى حقائق يقينية بعد انتهاء مراحل الشك وذلك الاساس يكمن في الكوجيتو المشهور " أنا أفكر ـ اذن انا موجود، الذي لا يمكن وصول الشك اليه، لانه هو من يستخدم اسلوب زعزعة اليقينيات حول مجمل القضايا التي تقف حائلا من دون التفكير والسؤال والشك الفاعل والمتواصل، فالكوجيتو هو المناعة الحقيقية التي يتناولها العقل الانساني ضد كل ما يصيب جسد المعرفة والحقيقة والعلم من تعثرات وامراض من شأنها ان تقف دون الوصول الى يقين واضح ومعين بشأن القضايا التي يطرحها ديكارت، وذلك لان الذات الشاكة هي ذات مفكرة تملك الوجود عن طريق الفكر، وهنا يصل ديكارت الى معرفة الوجود عن طريق الفكر كما اسلفنا سابقا من مثالية تجعل العالم الواقعي موجودا في اذهاننا ضمن ثنائية المادة والعقل.

حقائق ومعارف

لقد استطاع ديكارت ان يهشم جزءا أساسيا من الصخرة التي تستند اليها حقيقة العالم والارض ضمن البناء القروسطي مع كل المعارف والحقائق والمسلمات الصامتة والثابتة التي لا تتزعزع من مكانها، مع الاجيال العلمية المبدعة ضمن عصره ليكمل الدورة المتسلسلة في تراكم المشروع الغربي وتحولاته،فلاسفة وعلماء ومفكرين امثال كانت ولوك وهيوم وهيجل ونيوتن ومارکس.. الخ. لقد شك ديكارت في الكثير من الحقائق والمعارف ولكنه في النهاية عاد الى اليقين في كثير منها، فهل هنالك قيمة لذلك الشك؟ من المؤكد ان هنالك القيمة الاساس تلك التي تكمن في توسيع مجال الحرية والبحث العلمي وتمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، ولكن ذلك الشك لم يكن معنيا بالحقيقة بالمعنى الاكاديمي البحت، إذ كانت غايته الوصول الى حقيقة جديدة تعمل على صياغة كل ما من شأنه ان يجعل الانسان بعيدا عن لغة الجمود الذهني والمعرفي التي تصيب المجتمعات عادة، فالشك الديكارتي هو شك منهجي قد تم افتراضه مسبقا حول الكثير من القضايا التي تواجه الإنسان من اجل ان يعطيها معني وتفسيرا جديدا وفقا للتطورات والمكتشفات الحديثة ضمن عصره، التي بدأت تؤثر على الحياة المدنية والدولة والمجتمع على حد سواء وكذلك العلم والأخلاق كما يقول هابرماز الذي يعد التحولات والانتقالات التي حدثت من زمن القرون الوسطى الى الحداثة كانت مصاحبة لمبدأ " الذاتية " الذي تجسد في بنية تُدرك في الفلسفة كذاتية مجددة عبر كوجيتو ديكارت " أنا أفكر ـ اذن انا موجود " وفي صورة وعي الذات المطلق عند عمانويل كانت (يورغن هابرماز/فصل من كتاب الحداثة مشروع ناقص/مجلة العرب والفكر العالمي/العدد التاسع ـ شتاء ١٩٩٠/ ص١٠٨)

ديكارت وعصر التنوير

أ.د.عبد الجبار منديل

يرى الكثير من الباحثين ان الفلسفة الحديثة تبدأ من رينيه ديكارت. وديكارت هو عالم في الرياضيات ومهندس و فلكي وفيلسوف. ولد في فرنسا عام ١٥٩٥ لأب من النبلاء اصحاب المقاطعات الكاثوليك وقد اكتشف الأس الجبري ومزج بين الجبر والهندسة التحليلية وما تزال الاحداثيات الديكارتية تشكل اساس الاحداثيات التي يقوم عليها تحديد المواقع في شتى صنوف الهندسة العسكرية والمدنية.

في ذلك العصر كان نموذج ارسطو للافلاك هو السائد الذي تتبناه الكنيسة والقائل بأن الارض هي مركز الكون وان الشمس والقمر والكواكب تدور في فلك الارض ومن يخالف هذا المبدأ يواجه بعقاب صارم من الكنيسة والمجتمع. وقد اكتشف ديكارت العكس ورأى ان الارض ليست الا كوكبا صغيرا يدور في فلك الشمس في فضاء الكون الكبير اللامتناهي. ولكنه لم يعلن عن آرائه بعد ان رأى مصير غاليلو الذي عاقبته الكنيسة.

اتخذ ديكارت الشك طريقا لفلسفته. فهو يقول ان على الانسان ان يشك في كل شيء. فهل انا مثلا واثق من جلوسي في هذا المكان؟ الا يحتمل انني احلم؟ وان كل وجودي هو حلم في حلم؟. الذي لا شك فيه هو انني افكر لذا (انا افكر اذن انا موجود).

ان الشك الذي يقود الى التفكير هو الذي يؤكد الوجود. ويقول (اننا لن نتأكد من وجود العالم قبل تأكدنا من وجودنا نحن) وقد سار كل الفلاسفة اللاحقين على قاعدة الشك الديكارتي لمعالجة الاسئلة الفلسفية.

يقول ديكارت، انه يجب ان يكون الشك هو النظرة السائدة الا في حقيقة كون الانسان ذات مفكرة موجودة وجودا حقيقيا وان فكرة الله هي فكرة فطرية في البشر ولكنه يتابع ويقول بان الانسان متناه في حين ان الله غير متناهي لذلك فليس بوسع المتناهي ان يتخيل اللامتناهي. ان الله فكرة اودعها في نفسي وقام العقل بمعاينتها وقامت الارادة بأقرارها.

ويقول: ان الافكار الواضحة جدا والمتميزة جدا هي الافكار الوحيدة التي يمكن ان نسميها افكارا صحيحة كفكرة الذات المفكرة الواضحة جدا والمتميزة كذلك مع ملاحظة ان الفكرة المتميزة واضحة بالضرورة اما الفكرة الواضحة فليس بالضرورة متميزة. وان العقل السليم هو القاسم المشترك بين الناس وهو الوسيلة للحصول على المعارف دون وساطة خارجية.

لقد حاولت فلسفة ديكارت تقليد الرياضيات في وضوحها ويقينها وحاولت استنتاج ماهية الاشياء باستنباط عقلي وبدأ ديكارت يبحث عن وسيلة لانشاء ميتافيزيقا جديدة تقوم على الفيزياء الحديثة وتستخدم الادوات المنهجية التي يستخدمها علماء الرياضيات وعلماء الطبيعة فوضع قواعد علمية للشك المنهجي.

لقد تشكلت منظومة فكرية جديدة من خلال ابداع مفهوم القصور الذاتي من اجل العلم الطبيعي تقوم على قواعد عقلية رياضية وهندسية ادت الى هدم فيزياء ارسطو والى الغاء العلة الغائبة ورد الاعتبار للسببية في مواجهة الافكار الخاصة بالقرون الوسطى بشأن المعجزات والخوارق الطبيعية غير المبررة علميا.

لكي يتسنى للعلم الطبيعي الناشيء ان يتقدم بعيدا عن الاضطهاد والاوهام والافكار المسبقة فقد فصل ديكارت بين ما سماه مملكة الطبيعة ومملكة ما وراء الطبيعة وفصل بين مملكة الفكر ومملكة المادة ذلك ان عصر العلم اتى ليتم التمييز ايضا بين الصفات الرئيسة الثابتة والصفات الثانوية المتغيرة والتي بدأت تأخذ مكان المصلحين الذين هما الجوهر والعرض شيئا فشيئا.

وهو يوصي الباحثين عن الحقيقة قائلا: اذا اردت ان تكون باحثا صادقا عن الحقيقة فمن الضروري ان تشك ما لا يقل عن مرة واحدة في حياتك بقدر الامكان في كل الاشياء. انا اشك اذن انا افكر اذن انا موجود. ان الشك هو اساس الحكمة وعليك ان تنطلق من الاشياء الاكثر بساطة الى الاشياء الاكثر تعقيدا. ان الحواس تخدعنا من وقت الى آخر ومن الحكمة ان لا نثق بالذين خدعونا ولو مرة واحدة. وانا كلما اساء لي شخص احاول ان ارفع روحي عاليا حتى لا يمكن ان تصل الي الاساءة..

بعد الضجة الهائلة التي احدثها العالم الايطالي (غاليلو) ينشر كتابه عام ١٦٣٢م الذي نفى فيه ان تكون الارض مركز الكون وقال: ان الارض تتحرك في فلك الشمس وليس العكس كما كان يعتقد القدماء وقيام الكنيسة بأصدار الاعدام على من يؤيد هذا الرأي وجد (ديكارت) نفسه مضطرا الى الهروب من فرنسا الكاثوليكية الى الدول البروتستانية التي هي اكثر تسامحا. لذلك فقد استقر في هولندا للفترة من عام ١٦٢٨ الى عام ١٦٤٩ حيث قام بتكريس وقته للدراسة والبحث العلمي.

كتب ديكارت الكثير من الكتب ولكن اهم مؤلفاته هي:

١. رسالة في المنهج عام ١٦٣٧
٢. تأملات في الفلسفة الاولى عام ١٦٤١
٣. مبادئ الفلسفة الاولى عام ١٦٤٤
٤. مؤلفات في علوم الرياضيات والهندسة والجبر

وفي الفترة الاخيرة من اقامته في هولندا حاربته جامعة (لايدن) بحجة مخالفته للمذهب الارسطي الذي يقول بمركزية الارض وكذلك بحجة ان فلسفته في الشك الديكارتي تقود الى الالحاد لذلك فقد غادر هولندا الى المانيا وبعدها الى الدنمارك. ومن الدنمارك دعته ملكة السويد كريستينا عام ١٦٤٩ لكي يدرسها الفلسفة.

وكانت الملكة تصر على اخذ دروسها الساعة الخامسة صباحا الامر الذي كان يجبر الفيلسوف على الاسراع في الصباح الباكر لملاقاة الملكة في الجو السويدي البارد لذلك فقد اصيب بالالتهاب الرئوي الذي ادى الى وفاته.

لقد كان القرن السابع عشر قرن البحث عن الجوهر المادي الذي يقف وراء الاشياء ويعرف ديكارت الجوهر بانه اللامتناهي الكامل والحر والموجود وجودا حقيقيا ولا يحتاج في وجوده الى غيره من المخلوقات وانه القائم بذاته والذي لا يعتمد في وجوده على غيره. ويقول اننا لا ندرك الجوهر مباشرة وانما ندركه من خلال صفاته. فلكل جوهر صفة مكونة لماهيته مقومة لطبيعته فصفة النفس المقومة هي الفكر وصفة الجسم المقومة هي الامتداد. واحوال الجوهر المادي هي الحركة والشكل. وتتغير الاحوال بتغير الظروف ويضرب مثل بالشمعة حيث يتغير شكلها ولونها ورائحتها حين تحترق ولكن يظل الامتداد المتمثل في بقايا الشمع المحترق.

ان المادة امتداد و لا امتداد من دون مادة. والمادة متراصة في الكون والحركة في داخله ساكنة والحركة في الافلاك السماوية دائرية تامة ولذلك لابد اذن ان تكون الحركة اتية من الخارج. هناك وجود موضوعي للمادة فلا يعتمد الجسم على غيره اي انه لا يعتمد على ذواتنا فالوجود المادي مستقل عنا وليس مسألة ذاتية تعتمد على ادراكنا لها.

الامتداد عند ديكارت هو من الصفات الرئيسة فما تبقى من تجربة ديكارت على الشمعة بعد تغير لونها ورائحتها هو الشمع الممتد الذي ذاب ولكنه بقي له امتداد يوحي لنا بهوية الشمعة المصنوعة من الشمع. فالامتداد هو من الصفات الرئيسية الموضوعية التي لا تعتمد في وجودها على غيرها ولا يختلف اثنان بشأنها لانها موضوع العلم الطبيعي اما اللون والطعم والرائحة فمن صفات الثانوية الذاتية التي نعتمد علينا ونكتسبها بالتجربة.

سعى ديكارت للوصول الى المعرفة انطلاقا من منهج فيه الدقة واليقين على غرار الرياضيات وقد اسس للعقلانية والمنهج العلمي الامر الذي ساهم في تطور الفكر المدرسي القروسطي وخروجه من عقدة ارسطو ومنظومته.

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير
نزار عبد الستار

الاخراج الفني
مصطفى التميمي

التصحيح اللغوي
محمد حنون

المدى

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

Rene Descartes